الصحبة الطيبة

وما أطيب من صحبة حجة الإسلام أبي حامد الغزالي

تصنيف: **محمد جمال امام**

١٤ رمضان ١٤٣٦ هـ
أول يوليه ٢٠١٥ م

فهرست

	الصفحة
تمهيد	٣
يا أيها الولد	٤
التبر المسبوك في نصائح الملوك	٩
المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى	١٩
المنقذ من الضلال	٢٧
فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة	٣٧
كتاب النية والإخلاص والصدق	٤٥
كتاب المراقبة والمحاسبة	٦٠
كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٦٥
كتاب الحلال والحرام	٧٧
كتاب ذم الكبر والعجب	٨٣
كتاب ذم الغرور	٩٧

تمهيد

هذا المصنف مجموعة من المقتطفات من مصنفنا "منازل الهدى"، أي ليس فيه جديد، والسبب من ورائه أنني عندما فكرت في وضع المصنفات التي يتضمنها موقع "مصنفات إسلامية" كان هدفي من ذلك إفادة الشباب من أفراد أسرتي وممن أعرف، فضلا عن كونها فائدة عامة لمن يريد أن يستزيد من علوم الإسلام. ثم اكتشفت أن أولادي، الذين كانوا يقرأون نجيب محفوظ وهيكل وكتب أخرى مماثلة في صباهم، لم يعد لديه صبر على قراءة كتاب من مائتي صفحة مثلا، وقالوا إن ذلك من تأثير اعتيادهم على مواد وسائل الاتصال الاجتماعي الحديثة، وأن معظم الناس لم يعد لديهم صبر على قراءة ما يزيد عن بضع صفحات، واقترحوا علي عمل مقتطفات منها في رسائل قصيرة شيئا ما حتى يتيسر لهم قراءتها والاستفادة مما تحتويه. وها أنا أفعل ذلك راجيا أن يكونوا قد وجدوا من الوقت والصبر ما يمكنهم بالفعل من قراءة تلك المقتطفات، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وعلى الله قصد السبيل.

محمد جمال امام

القاهرة الجديدة، مصر

الأربعاء الموافق ١٤ رمضان ١٤٣٦ هـ

أول يوليه ٢٠١٥ م

يا أيها الولد

إعلم أن واحدا من الطلبة المتقدمين لازم خدمة الشيخ الإمام زين الدين حجّة الإسلام أبي حامد بن محمد الغزالي، قدس الله روحه، واشتغل بالتحصيل وقراءة العلم عليه حتى جمع دقائق العلوم، واستكمل فضائل النفس. ثم إنه تفكر يوما في حال نفسه، وخطر على باله، وقال: إني قرأت أنواعا من العلوم وصرفت ريعان عمري على تعلمها وجمعها، والآن ينبغي لي أن أعلم أي نوعها ينفعني غدا ويؤنسني في قبري؟ وأيها لا ينفعني حتى أتركه، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم أعوذ بك من علم لا ينفع". فاستمرت هذه الفكرة حتى كتب إلى حضرة الشيخ حجة الإسلام محمد الغزالي رحمه الله تعالى واستفتاه، وسأله مسائل والتمس نصيحة ودعاء، قال: وإن كانت مصنفات الشيخ كالإحياء وغيره تشتمل على جواب مسائلي، لكن مقصودي أن يكتب الشيخ حاجتي في ورقات تكون معي مدة حياتي، وأعمل بما فيها مدة عمري إن شاء الله تعالى. فكتب الشيخ هذه الرسالة إليه في جوابه، والله أعلم.

إعلم أيه الولد المحب العزيز، أطال الله بقاءك بطاعته وسلك بك سبيل أحبائه، أن منشور النصيحة يُكتب من معدن الرسالة، وإن كان قد بلغك منه نصيحة، فأي حاجة لك في نصيحتي، وإن لم يبلغك فقل لي: ماذا حصلت في هذه السنين الماضية؟

أيها الولد، من جملة ما نصح به رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته قوله عليه الصلاة والسلام: "علامة إعراض الله تعالى عن العبد اشتغاله بما لا يعنيه. **وإن امرأ ذهبت ساعة من عمره في غير ما خُلِق له العباد لجدير أن تطول عليه حسرته**. ومن جاوز الأربعين ولم يغلب خيره على شره فليتجهز إلى النار"، وفي هذه النصيحة كفاية لأهل العلم.

أيها الولد، النصيحة سهلة والمشكلة قبولها، لأنها في مذاق متبعي الهوى مُرة.

ورُوي أن الجنيد، قدس الله سره، رؤي في المنام بعد موته فقيل له: ما الخبر يا أبا القاسم؟ قال: طاحت تلك العبارات، وفنيت تلك الإشارات، **وما نفعنا إلا ركيعات ركعناها في جوف الليل**.

ولو قرأت العلم مائة سنة، وجمعت ألف كتاب، **لا تكون مستعدا لرحمة الله تعالى إلا بالعمل**،{وإن ليس للإنسان إلا ما سعى}[النجم: ٣٨]،{فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا}[الكهف: ١١]،{جزاء بما كانوا يكسبون}[التوبة: ٨٢]،{إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا* خالدين فيها لا يبغون عنها حولا}[الكهف: ١٠٧- ١٠٨]،{فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا* إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا}[مريم: ٥٩- ٦٠].

وما تقول في هذا الحديث: "بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا". والإيمان قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان. ودليل الأعمال أكثر من أن يُحصى، **وإن كان العبد يبلغ الجنة بفضل الله تعالى وكرمه، لكن بعد أن يستعد بطاعته وعبادته، لأن رحمة الله قريب من المحسنين**. ولو قيل أيضا: يبلغ بمجرد الإيمان، قلنا: نعم، ولكن متى يبلغ؟ وكم من عقبة كؤود يقطعها إلى أن يصل؟ فأول تلك العقبات عقبة الإيمان، وأنه هل يسلم من سلب الإيمان أم لا؟ وإذا وصل هل يكون خائبا مفلسا؟ وقال الحسن البصري: يقول الله تعالى لعباده يوم القيامة: **ادخلوا يا عبادي الجنة برحمتي واقتسموها بأعمالكم**.

أيها الولد، **ما لم تعمل لم تجد الأجر**. حُكي أن رجلا من بني إسرائيل عبد الله سبعين سنة، فأراد الله تعالى أن يجلوه على الملائكة، فأرسل إليه ملكا يخبره أنه مع تلك العبادة لا يليق به دخول الجنة، فلما بلغه قال العابد: **نحن خُلقنا للعبادة فينبغي لنا أن نعبده**. فلما رجع الملك قال إليه: أنت أعلم بما قال. فقال الله تعالى: "إذا هو لم يعرض عن عبادتنا فنحن مع الكرم لا نعرض عنه. اشهدوا يا ملائكتي أني قد غفرت له".

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا**". وقال علي رضي الله عنه: "من ظن أنه بدون الجهد يصل فهو متمن. ومن ظن أنه ببذل الجهد يصل فهو مستغن". وقال الحسن رحمه الله: "**طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب**"، وقال: "علامة الحقيقة ترك ملاحظة العمل لا ترك العمل". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الكيس من دان نفسه وعمِل لما بعد الموت، والأحمق من اتبع هواه وتمنى على الله تعالى الأماني".

أيها الولد، العلم بلا عمل جنون، والعمل بغير علم لا يكون. واعلم أن العلم الذي لا يبعدك اليوم عن المعاصي ولا يحملك على الطاعة لن يبعدك غدا عن نار جهنم، وإذا لم تعمل بعلمك اليوم ولم تدارك الأيام الماضية تقول غدا يوم القيامة: {فارجعنا نعمل صالحا}، فيقال: يا أحمق، أنت من هناك تجيئ!

أيها الولد، اجعل الهمة في الروح، والهزيمة في النفس، والموت في البدن، لأن منزلك القبر وأهل المقابر ينتظرونك في كل لحظة: متى تصل إليهم؟ **إياك إياك أن تصل إليهم بلا زاد**.

أيها الولد، لو كان العلم المجرد كافيا لك ولا تحتاج إلى عمل سواه لكان نداء: "هل من سائل؟ هل من مستغفر؟ هل من تائب؟" ضائعا بلا فائدة. وروي أن جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ذكروا عبد الله بن عمر رضي الله عنه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "**نِعم الرجل هو لو كان يصلي بالليل**". وقال عليه الصلاة والسلام لرجل من أصحابه: "**يا فلان، لا تُكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل يدع صاحبه فقيرا يوم القيامة**".

أيها الولد: {ومن الليل فتهجد به نافلة لك}[الإسراء: ٧٩] **أمر**، {وبالأسحار هم يستغفرون}[الذاريات:١٨] **شكر**، {والمستغفرين بالأسحار}[آل عمران: ١٧] **ذِكر**. قال عليه الصلاة والسلام:

"ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى، صوت الديك، وصوت الذي يقرأ القرآن، وصوت المستغفرين بالأسحار". وقال سفيان الثوري رحمه الله تعالى: "إن الله تبارك وتعالى خلق ريحا تهب بالأسحار تحمل الأذكار والاستغفار إلى الملك الجبار". وقال أيضا: "إذا كان أول الليل ينادي مناد من تحت العرش: **ألا ليقم العابدون**، فيقومون ويصلون ما شاء الله. ثم ينادي مناد في شطر الليل: **ألا ليقم القانتون**، فيقومون ويصلون إلى السحر. فإذا كان السحر نادى مناد: **ألا ليقم المستغفرون**، فيقومون ويستغفرون. فإذا طلع الفجر نادى مناد: **ألا ليقم الغافلون**، فيقومون من فرشهم كالموتى نُشروا من قبورهم".

أيها الولد، روي في وصايا لقمان الحكيم لابنه أنه قال: يا بني، لا يكونن الديك أكيس منك! ينادي بالأسحار وأنت نائم.

أيها الولد، خلاصة العلم أن تعلم الطاعة والعبادة ما هي: **إعلم أن الطاعة والعبادة متابعة الشارع في الأوامر والنواهي بالقول والفعل، يعني كل ما تقول وتفعل وتترك يكون باقتداء الشرع**، كما لو صمت يوم العيد وأيام التشريق تكون عاصيا، أو صليت في ثوب مغصوب، وإن كانت صورة عبادة، تأثم.

أيها الولد، ينبغي لك أن يكون قولك وفعلك موافقا للشرع. إذ **العلم بلا اقتداء الشرع ضلالة**. وينبغي لك ألا تغتر بالشطح وطامَّات الصوفية، لأن سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة وقطع شهوة النفس وقتل هواها بسيف الرياضة لا بالطامات والتُرُّهات. واعلم أن اللسان المطلق، والقلب المملوء بالغفلة والشهوة، علامة الشقاء. فإذا لم تقتل النفس بصدق المجاهدة فلن يحيا قلبك بأنوار المعرفة.

أيها الولد، بعض مسائلك من هذا القبيل، وأما البعض الذي يستقيم له الجواب فقد ذكرناه في "إحياء العلوم" وغيره، ونذكر هنا نبذا منه، ونشير إليه فنقول:

قد وجب على السالك أربعة أمور:

الأمر الأول: اعتقاد صحيح لا يكون فيه بدعة.

والثاني: توبة نصوح لا يرجع بعدها إلى الزلة.

والثالث: استرضاء الخصوم حتى لا يبقى لأحد عليك حق.

والرابع: تحصيل علم الشريعة قدر ما تؤدَى به أوامر الله تعالى، ثم من العلوم الأخرى ما تكون به النجاة.

حُكي أن الشبلي رحمه الله خدم أربعمائة أستاذ وقال: قرأت أربعة آلاف حديث، ثم اخترت منها حديثا واحدا وعملت به خليت ما سواه، لأني تأملته فوجدت خلاصي ونجاتي فيه، وكان علم الأولين والآخرين مندرجا فيه فاكتفيت به، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبعض أصحابه: "**إعمل لدنياك بقدر مقامك فيها، واعمل لآخرتك بقدر بقائك فيها، واعمل لله بقدر حاجتك إليه، واعمل للنار بقدر صبرك عليها**".

أيها الولد، إذا علمت هذا الحديث، لا حاجة إلى العلم الكثير. وتأمل حكاية أخرى، وذلك أن حاتما الأصم كان من أصحاب الشقيق البلخي رحمة الله تعالي عليهما، فسأله يوما، قال: صاحبتني منذ ثلاثين سنة، ما

حصلته فيها؟ قال: حصلت ثماني فوائد من العلم وهي تكفيني منه، لأني أرجو خلاصه ونجاتي فيها. فقال شقيق: ما هي؟ قال حاتم الأصم: الفائدة الأولى أني نظرت إلى الخلق فرأيت لكل منهم محبوبا ومعشوقا يحبه ويعشقه، وبعض ذلك المحبوب يصاحبه إلى مرض الموت، وبعضه إلى شفير القبر، ثم يرجع كله ويتركه فريدا وحيدا ولا يدخل معه في قبره منهم أحد، فتفكرت وقلت: أفضل محبوب المرء ما يدخل في قبره ويؤانسه فيه، فما وجدته غير الأعمال الصالحة فأخذتها محبوبا لي لتكون سراجا لي في قبري وتؤانسني فيه ولا تتركني فريدا.

الفائدة الثانية: أني رأيت الخلق يقتدون بأهوائهم ويبادرون إلى مرادات أنفسهم، فتأملت قوله تعالى:{وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى* فإن الجنة هي المأوى}[النازعات:٤٠- ٤١] وتيقنت أن القرآن حق صادق، فبادرت إلى خلاف نفسي وتشمرت لمجاهدتها ومنعها عن هواها حتى ارتاضت لطاعة الله سبحانه وتعالى وانقادت.

الفائدة الثالثة: أني رأيت كل واحد من الناس يسعى في جمع حطام الدنيا ثم يمسكه قابضا يده عليه، فتأملت في قوله تعالى:{ما عندكم ينفد وما عند الله باق}[النحل: ٩٦]، فبذلت محصولي من الدنيا لوجه الله تعالى ففرقته بين المساكين ليكون ذخرا لي عند الله تعالى.

الفائدة الرابعة: أني رأيت بعض الخلق ظن شرفه وعِزه في كثرة الأقوام والعشائر فاغتر بهم، وزعم آخرون أنه في ثروة الأموال وكثرة الأولاد فافتخروا بها، وحسب بعضهم الشرف والعز في غصب أموال الناس وظلمهم وسفك دمائهم، واعتقدت طائفة أنه في إتلاف المال وإسرافه وتبذيره، وتأملت في قوله تعالى:{إن أكرمكم عند الله أتقاكم}[الحجرات: ١٣]، فاخترت التقوى واعتقدت أن القرآن حق صادق وظنهم وحسبانهم كلها باطل زائل.

الفائدة الخامسة: أني رأيت الناس يذم بعضهم بعضا ويغتاب بعضهم بعضا، فوجدت ذلك من الحسد في المال والجاه والعلم، فتأملت في قوله تعالى:{نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا}[الزخرف: ٣٢] فعلمت أن القسمة كانت من الله تعالى في الأزل، فما حسدت أحدا ورضيت بقسمة الله تعالى.

الفائدة السادسة: أني رأيت الناس يعادي بعضهم بعضا لغرض وسبب، فتأملت قوله تعالى:{إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا}[فاطر: ٦]، فعلمت أنه لا تجوز عداوة أحد غير الشيطان.

الفائدة السابعة: أني رأيت كل أحد يسعى بجد واجتهاد بمبالغة لطلب القوت والمعاش بحيث يقع به في شبهة وحرام، ويُذِل نفسه ويُنقِص قدره، فتأملت في قوله تعالى:{وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها}[هود:٦]، فعلمت أن رزقي على الله تعالى وقد ضمنته، فاشتغلت بعبادته وقطعت طمعي عمن سواه.

الفائدة الثامنة: أني رأيت كل واحد معتمدا على شيء مخلوق، بعضهم إلى الدينار والدرهم، وبعضهم إلى المال والملك، وبعضهم إلى الحرفة والصناعة، وبعضهم إلى مخلوق مثله، فتأملت في قوله تعالى:{ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شيء قدرا}[الطلاق:٣]، فتوكلت على الله فهو حسبي ونعم الوكيل.

فقال له شقيق: وفقك الله تعالى، إني قد نظرت في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان فوجدت الكتب الأربعة تدور على هذه الفوائد الثمانية، فمن عمل بها كان عاملا بهذه الكتب الأربعة.

ثم إنك سألتني عن معنى العبودية، وهي ثلاثة أشياء: **أحدها محافظة أمر الشرع، وثانيها الرضا بالقضاء والقدر وقسمة الله تعالى، وثالثهما ترك رضاء نفسك في طلب رضاء الله تعالى.**

وسألتني عن **التوكل، وهو أن تستحكم اعتقادك بالله تعالى فيما وعد، يعني تعتقد أن ما قُدِّر لك سيصل إليك لا محالة، وإن اجتهد كل من في العالم على صرفه عنك، وما لم يكتب لن يصل إليك وإن ساعدك جميع العالم.**

وسألتني عن **الإخلاص، وهو أن تكون أعمالك كلها لله تعالى، ولا يرتاح قلبك بمحامد الناس ولا تبالي بمذمتهم.** واعلم أن الرياء يتولد من تعظيم الخَلْق، وعلاجه أن تراهم مسخرين تحت القدرة وتحسبهم كالجمادات في عدم قدرة إيصال الراحة والمشقة لتتخلص من مراءاتهم، ومتى تحسبهم ذوي قدرة وإرادة لن يبعد عنك الرياء.

والثالث مما تدع ألا تخالط الأمراء والسلاطين ولا تراهم، لأن رؤيتهم ومجالستهم ومخالطتهم آفة عظيمة، ولو ابتُليت بها، دع عنك مدحهم وثناءهم، لأن الله تعالى يغضب إذا مُدح الفاسق والظالم، ومن دعا لطول بقائهم فقد أحب أن يعصي الله في أرضه.

والرابع مما تدع ألا تقبل شيئا من عطاء الأمراء وهداياهم، وإن علمت أنها من الحلال. لأن الطمع منهم يفسد الدين، لأنه يتولد منه المداهنة ومراعاة جانبهم والموافقة على ظلمهم، وهذا كله من فساد في الدين، وأقل مضرته أنك إذا قبلت عطاياهم وانتفعت من دنياهم أحببتهم، ومن أحب أحدا يحب طول عمره وبقائه بالضرورة، **وفي محبة بقاء الظالم إرادة في الظلم على عباد الله تعالى، وإرادة خراب العالم.** فأي شيء يكون أضر من هذا للدين والعاقبة؟ وإياك إياك أن يخدعك استهواء الشياطين، أو قول بعض الناس لك بأن الأفضل والأولى أن تأخذ الدينار والدرهم منهم وتفرقها بين الفقراء والمساكين فإنهم ينفقونها في الفسق والمعصية، وإنفاقك على ضعفاء الناس خير من إنفاقهم، فإن اللعين قد قطع أعناق كثير من الناس بهذه الوسوسة.

أيها الولد، إني كتبت في هذا الفصل ملتمساتك فينبغي لك أن تعمل بها ولا تنساني فيه من أن تذكرني في صالح دعائك. وأما الدعاء الذي سألت مني فاطلبه من دعوات الصحاح، واقرأ هذا الدعاء في جميع أوقاتك خصوصا في أعقاب صلواتك: "اللهم إني أسألك من النعمة تمامها، ومن العصمة دوامها، ومن الرحمة شمولها، ومن العافية حصولها، ومن العيش رغده، ومن العمر أسعده، ومن الإحسان أتمه، ومن الإنعام أعمه، ومن الفضل أعذبه، ومن اللطف أنفعه. اللهم كن لنا ولا تكن علينا. اللهم اختم بالسعادة آجالنا، وحقق بالزيادة آمالنا، إقرن بالعافية غدونا وآصالنا، واجعل إلى رحمتك مصيرنا ومآلنا، واصبب سجال عفوك على ذنوبنا، وعليك توكلنا واعتمادنا. اللهم ثبتنا على نهج الاستقامة، وأعذنا في الدنيا من موجبات الندامة يوم القيامة، وخفف عنا ثقل الأوزار، وارزقنا عيشة

الأبرار، واكفنا ما أهمنا في هذه الدار وفي تلك الدار، واصرف عنا شر الأشرار وكيد الفجار واعتق رقابنا ورقاب آبائنا وأمهاتنا وإخواننا وأخواتنا من النار برحمتك يا عزيز يا غفار، يا كريم يا ستار، يا خالق الليل والنهار، خلصنا من هم الدنيا وعذاب القبر والنار يا عليم يا جبار، يا ألله، يا ألله، يا ألله، برحمتك يا أرحم الراحمين ويا أول الأولين ويا آخر الآخرين، ويا ذا القوة المتين، ويا راحم المساكين، ويا أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. وصلي اللهم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين".

التبر المسبوك في نصيحة الملوك

أصول الإيمان

الأصل الأول: قاعدة الاعتقاد الذي هو أصل الإيمان

اعلم أيها السلطان أنك مخلوق ولك خالق، وهو خالق العالم وجميع ما في العالم، وأنه لا شريك له فرد لا مثل له، كان في الأزل وليس لكونه زوال ويكون مع الأبد، وليس لبقائه فناء، وجوده في الأبد والأزل وما للعدم إليه سبيل، وهو موجود بذاته وكل أحد محتاج إليه وليس له إلى أحد احتياج، وجوده به ووجود كل شيء به.

الأصل الثاني: في تنزيه الخالق تعالى

اعلم أن البارئ تعالى ذكره ليس له صورة ولا مثل، وأنه لا ينزل ولا يحل في قالب، وأنه تعالى منزّه عن الكيف والكم وعن لماذا وكم، وأنه لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء، وكلما يخطر في الوهم والخيال والفكر من التخيل والتمثيل والتكيف فانه منزّه عن ذلك، لأن ذلك من صفات المخلوقين وهو خالقها فلا يوصف بها، وأنه تعالى جدّه ليس في مكان ولا على مكان، فإن المكان لا يحصره، وكل ما في العالم فإنه تحت عرشه، وعرشه تحت قدرته وتسخيره، وأنه قبل العرش كان متنزها عن المكان، وليس العرش بحامل له بل العرش وحملته يحملهم لطفه وقدرته.

الأصل الرابع: في العلم

وأنه تعالى عالم بكل معلوم وعلمه محيط بكل شيء، فليس شيء في العلا إلى الثرى إلا قد أحاط به علمه، لأن الأشياء جميعها بعلمه ظهرت وبإرادته خلقها وبقدرته كونها، وأنه تعالى يعلم عدة رمال القفار وقطرات الأمطار وورق الأشجار وغوامض الأفكار وما دارت عليه الرياح والهواء في علمه ظاهر مثل عدد نجوم السماء. وأن جميع ما في العالم بإرادته ومشيئته وليس شيء من قليل أو كثير، صغير أو كبير، خير أو شر، نفع أو ضر، زيادة أو نقصان، راحة أو تعب أو صحة، إلا بحكمه وتدبيره ومشيئته وتقديره. **وما شاء الله كان وما لا يشاء لا يكون ولا تُرد مشيئته، ومهما كان ويكون أو هو كائن فإنه بتدبيره وأمره وتسخيره**.

....

الأصل السابع: في الكلام

وأن أمره تعالى على جميع الخلق نافذ واجب مهما أخبره من وعد ووعيد فانه حق وأمره كلامه. وكما أنه عالم مريد قدير سميع بصير فهو متكلم، وكلامه بغير حلق ولا لسان ولا فم ولا أسنان، والقرآن والتوراة والإنجيل والزبور والكتب المنزَلة على الأنبياء عليهم السلام جميعها كلامه. وكلامه صفته وكل صفاته قديمة، وكما أن الكلام عند الآدمي حرف وصوت فكلام الله منزه عن الأصوات والحروف.

الأصل الثامن: في أفعاله تعالى

وأن جميع ما في العالم مخلوق له تعالى، وليس معه شريك ولا خالق بل هو الخالق الواحد، ومهما خلقه من تعب ومرض وفقر وعجز وجهل **فعدل منه**، ولا يمكن الظلم في أفعاله، لأن الظالم هو الذي يتصرف في ملك غيره، والخالق تعالى لا يتصرف إلا في ملكه وليس معه مالك سواه، وكل ما يكون وهو كائن فهو ملك له، **وليس لأحد عليه اعتراض بلم وكيف**، ولكن له الحكم والأمر في كل أفعاله، **وما لأحد غير التسليم والنظر إلى صُنعه والرضا بقضائه**. وكما أن علمه لا يصدر عن فكرة، ففعله بغير آلة وعدة يقول للشيء كن فيكون.

الأصل التاسع: في ذكر الآخرة

وأنه تعالى خلق العالم من نوعين جسد وروح، وجعل الجسد مَنزلاً للروح لتأخذ زاداً لآخرتها من هذا العالم، وجعل لكل روح مدة مقدّرة تكون في الجسد، فآخر تلك المدة هو أجل تلك الروح من غير زيادة ولا نقصان، فإذا جاء الأجل فرّق بين الروح والجسد. ويوم القيامة يوم الحساب والمكافأة والمناقشة والمجازاة، تُردّ الروح إلى الجسد، وتُنشر

الصحف وتعرض الأعمال على الخلائق، فينظر كل إنسان في كتابه فيرى أعماله ويشاهد أفعاله ويعلم مقدار طاعته ومعصيته، وتوزن أعماله في ميزان الأعمال، فمن الناس قوم يُدخلون الجنة بغير حساب، وجماعة يُحاسبون بالرفق والمسامحة، وجماعة يُحاسبون بالصعوبة والمناقشة والمحاققة، ثم يسحب الكفار إلى نار جهنم بحيث لا يجدون خلاصاً، ويدخل أهل الجنة ويؤمر بالعصاة إلى النار .

الأصل العاشر: في ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولما قدّر الله تعالى هذا التقدير وجعل الإنسان وأحواله واكتسابه وأعماله منها ما هو سبب لسعادته ومنها ما هو سبب لشقاوته، والإنسان لا يقدر أن يعرف ذلك من تلقاء نفسه، خلق الله تعالى بحكم فضله ورحمته وطوله ومنته ملائكة وبعثهم إلى أشخاص قد حُكم لهم بالسعادة في الأزل وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فأرسلهم إلى الخلق ليوضحوا لهم طرق السعادة والشقاوة لئلا يكون للناس على الله حجة، وأرسل نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم آخراً وجعله بشيراً ونذيراً، فأوصل نبوّته إلى درجة الكمال فلم يبقَ للزيادة فيه مجال، ولهذا جعله خاتم الأنبياء فلا نبي بعده، وأمر الخلائق من الإنس والجن بطاعته واتباعه وجعله سيد الأولين والآخرين، وجعل أصحابه خير أصحاب الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

ذكر فروع شجرة الإيمان:

إعلم أيها السلطان أن كل ما كان في قلب الإنسان من معرفة واعتقاد فذلك أصل الإيمان، وما كان جارياً على أعضائه السبعة من الطاعة والعدل فذلك فرع الإيمان. فإذا كان الفرع ذاوياً دلّ على ضعف الأصل، فإنه لا يثبت عند الموت، وعمل البدن عنوان إيمان القلب. والأعمال التي هي فروع الإيمان هي تجنب المحارم وأداء الفرائض وهما قسمان: أحدهما بينك وبين الله تعالى مثل الصوم والصلاة والحج والزكاة واجتناب شرب الشراب والعفة عن الحرام، والأخرى بينك وبين الخلق وهي العدل في الرعية والكف عن الظلم. والأصل في ذلك أن تعمل فيما بينك وبين الخالق تعالى من طاعة أمره والازدجار بزجره وما تختار أن تعتمده عبيدك في حقك، وأن تعمل فيما بينك وبين الناس ما تؤثر أن يُعمل معك. **واعلم أنّ ما كان بينك وبين الخالق سبحانه فإن عفوه قريب، وأما ما يتعلق بمظالم الناس فإنه لا يتجاوز به عنك على كل حال يوم القيامة وخطره عظيم.**

أصول العدل والإنصاف عشرة:

الأصل الأول من ذلك هو أن تعرف أولاً قدر الولاية وتعلم خطرها. فإن الولاية نعمة من نعم الله عز وجل من قام بحقّها نال من السعادة ما لا نهاية له ولا سعادة بعده، ومن قصّر عن النهوض بحقها حصل في شقاوة لا شقاوة

بعدها إلا الكفر بالله تعالى. والدليل على عظم قدرها وجلالة خطرها ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "عدل السلطان يوماً واحداً أحب إلى الله من عبادة سبعين سنة". وقال عليه الصلاة والسلام: "إذا كان يوم القيامة لا يبقى ظل ولا ملجأ إلا ظل الله، ولا يستظل بظله إلا سبعة أناس: سلطان عادل في رعيته، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل يكون في السوق وقلبه في المسجد، ورجلان تحابا في الله، ورجل ذكر الله في خلوته فأذرى دمعه من مقلته، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال ومال إلى نفسها فقال إني أخاف الله، ورجل يتصدق سراً بيمينه ولم تشعر بها شماله". وقال عليه الصلاة والسلام: "أحب الناس إلى الله تعالى وأقربهم إليه السلطان العادل وأبغضهم إليه وأبعدهم منه السلطان الجائر". وقال عليه الصلاة والسلام: "والذي نفس محمد بيده إنه ليرفع للسلطان العادل إلى السماء من العمل مثل عمل جملة الرعية، وكل صلاة يصلّيها تعدل سبعين ألف صلاة". وقال عليه الصلاة والسلام: "ثلاثة لا ينظر الله إليهم: سلطان جائر كاذب، وشيخ زانٍ، وفقير متكبر" (يعني أنه متكبر للطمع). وقال عليه الصلاة والسلام: "ما من عبد ولّاه الله أمر رعية فغشهم ولم ينصح لهم ولم يشفق عليهم الا حرَم الله عليه الجنة". وقال عليه الصلاة والسلام: "من ولِّيَ أمور المسلمين ولم يحفظهم كحفظه أهل بيته فقد تبوأ مقعده من النار". وقال عليه الصلاة والسلام: "**رجلان من أمتي يحرمان شفاعتي: ملك ظالم ومبتدع غال في الدين يتعدى الحدود**". وقال عليه الصلاة والسلام: "**أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة السلطان الظالم**". وقال عليه الصلاة والسلام: "خمسة قد غضب الله عليهم إن شاء أمضى غضبه ومقرهم النار، أمير قوم يطيعونه يأخذ حقه منهم ولا ينصفهم من نفسه ولا يرفع الظلم عنهم، ورئيس قوم يطيعونه ولا يساوي بين القوي والضعيف ويحكم بالميل والمحاباة، **ورجل لا يأمر أهله وأولاده بطاعة الله ولا يعلمهم أمور الدين ولا يبالي من أين أطعمهم**، ورجل استأجر أجيراً فتمم عمله ومنعه أجرته، ورجل ظلم زوجته في صداقها". كان عمر بن الخطاب يخرج كل ليلة يطوف مع العسس حتى يرى خللاً يتداركه، وكان يقول: "**لو تركت عنزاً جرباء على جانب ساقية لم تدهن لخشيت أن أُسأل عنها في القيامة**". قال عبد الله بن عمر وجماعة من أهل بيته: كنا ندعو الله أن يرينا عمر في المنام فرأيته بعد اثني عشر كأنه قد اغتسل وهو متلفع، فقلت: يا أمير المؤمنين كيف وجدت ربك وبأي حسناتك جازاك؟ فقال: يا عبد الله كم لي منذ فارقتك؟ فقلت: إثنتا عشرة سنة. فقال: منذ فارقتكم في الحساب، وخفت أن أهلك إلا أن الله غفور رحيم جواد كريم. فهذا حال عمر ولم يكن له من دنياه شيء من أسباب الولاية سوى درة.

كما يُقال أن شقيقاً البلخي دخل على هارون الرشيد فقال له: أنت شقيق الزاهد؟ فقال: أنا شقيق ولست بزاهد. فقال له: أوصني. فقال: إن الله تعالى قد أجلسك مكان الصِدِّيق وأنه يطلب منك مثل صدقه، وأنه أعطاك موضع عمر بن الخطاب الفاروق وأنه يطلب منك الفرق بين الحق والباطل مثله، وأنه أقعدك موضع عثمان بن عفان ذي النورين وهو يطلب منك مثل حيائه وكرمه، وأعطاك موضع علي بن أبي طالب وهو يطلب منك مثل العلم والعدل كما يطلب منه. فقال له: زدني من وصيتك. فقال: نعم، اعلم أنا لله تعالى داراً تعرف بجهنم وأنه قد جعلك بواب تلك الدار وأعطاك ثلاثة أشياء بيت المال والسوط والسيف، وأمرك أن تمنع الخلق من دخول النار

بهذه الثلاثة، فمن جاء محتاجاً فلا تمنعه من بيت المال، ومن خالف أمر ربه فأدبه بالسوط، ومن قتل نفساً بغير حق فاقتله بالسيف بإذن ولي المقتول، فإن لم تفعل ما أمرك فأنت الزعيم لأهل النار والمتقدم إلى البوار. فقال له: زدني. فقال: إنما مثلك كمثل معين الماء، وسائر العلماء في العالم كمثل السواقي، فإذا كان المعين صافياً لا يضر كدر السواقي، وإذا كان المعين كدراً لا ينفع صفاء السواقي.

حضر أبو قلابة مجلس عمر بن عبد العزيز فقال له: عظني قال: من عهد آدم إلى وقتنا هذا لم يبق خليفة سواك. فقال: زدني. فقال: أنت أول خليفة يموت. فقال: زدني. فقال: **إن كان الله معك فممن تخاف وإن لم يكن معك فإلى من تلتجيء**. قال: حسبي ما قلت. سُئل عمر بن عبد العزيز: ما كان سبب توبتك؟ قال: كنت أضرب يوماً غلاماً فقال لي: **اذكر الليلة التي تكون صبيحتها القيامة** . فعمل ذلك الكلام في قلبي.

رأى بعض الأكابر هارون الرشيد في عرفات وهو حافٍ حاسر قائم على الرمضاء الحارة وقد رفع يديه وهو يقول: **إلهي أنت وأنا أنا الذي دأبي كل يوم أعود إلى عصيانك ودأبك أن تعود إليّ برحمتك**. فقال بعض الكبراء: انظروا إلى تضرع جبار الأرض بين يديّ جبار السماء.

سأل عمر بن عبد العزيز يوماً أبو حازم الموعظة فقال له أبو حازم: إذا نمت فضع الموت تحت رأسك، وكل ما أحببت أن يأتيك الموت وأنت عليه مصرّ فالزمه، وكل مالا تريد أن يأتيك الموت وأنت عليه فاجتنبه، **فربما كان الموت منك قريباً**.

يقال أن أبا جعفر المنصور أمر بقتل رجل والمبارك بن الفضل حاضر فقال: يا أمير المؤمنين اسمع خبراً قبل أن تقتله. روى الحسن البصري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا كان يوم القيامة وجُمع الخلائق في صعيد واحد، نادي منادٍ من كان له عند الله يد فليقم، فلا يقوم إلا من عفا عن الناس، فقال أطلقوه فإني قد عفوت عنه". وأكثر ما يكون قال عيسى عليه السلام ليحيي بن زكريا عليهما السلام: "**إذا ذكرك أحد بشيء وقال فيك صحيحاً فاشكر الله، وإن قال فيك كذباً فازدد من ذكر الشكر، فإنه يزيد في ديوان أعمالك وأنت مستريح**"، يعني أن حسناته تكتب لك في ديوانك. وذُكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل، فقيل إن فلاناً رجل قوي شجاع فقال: كيف ذاك فقالوا: يقوى بكل أحد وما صارع أحداً إلا صرعه، فقال عليه الصلاة السلام: "القوي الشجاع من قهر نفسه لا من صرع غيره". وقال عليه الصلاة والسلام: "ثلاث من كانت فيه فقد كمل إيمانه: من كظم غيظه، وأنصف في حال رضاه وغضبه، وعفا عند المقدرة". وقال عمر ابن الخطاب: "لا تعتمد على خُلِق رجل حتى تجربه عند الغضب".

حكاية: قيل عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه بلغه عن رجل كلام يكرهه، فأخذ طبقاً مملوأً من التمر الجني وحمله بنفسه إلى دار ذلك الرجل، فطرق الباب، فقام الرجل وفتح الباب فنظر إلى الحسين ومعه الطبق فقال: وما هذا يا ابن بنت رسول الله؟ قال: خذه فإنه بلغني عنك أنك أهديت إليّ حسناتك فقابلت بهذا.

ويُروى أن إبليس رأى موسى عليه السلام فقال: يا موسى أعلمك ثلاثة أشياء وتطلب لي من الله حاجة واحدة فقال: وما الثلاثة أشياء فقال يا موسى احذر من الغضب والحرد (الغضب) فإن الحَردان يكون خفيف الرأس وأنا ألعب به كما يلعب الصبيان بالكرة، واحذر من البخل فإني أفسد على البخيل دنياه ودينه، واحذر من النساء فإني ما نصبت للخلق شركاً اعتمد عليه مثل النساء. وقال عليه الصلاة والسلام: "من كظم غيظه وهو قادر على أن لايكظمه ملأ الله قلبه بالإيمان، ومن لم يلبس ثوباً طويلاً خوفاً من التكبر والخيلاء ألبسه الله تعالى حلل الكرامة". وقال عليه الصلاة والسلام: "**ويل لمن يغضب وينسى غضب الله**". وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: علمني عملاً أدخل به الجنة. فقال: "**لا تغضب**". قال: ثم ماذا؟ قال: "استغفر الله قبل صلاة العصر سبعين مرة لتكفر عنك ذنوب سبعين سنة". فقال: ما لي ذنوب سبعين سنة. فقال: لأمك. قال: وما لأمي ذنوب سبعين سنة. قال: لأبيك. قال: وما لأبي ذنوب سبعين سنة. قال: لأخوتك. قال: نعم. وقال عليه الصلاة والسلام: "من أحب النجاة من النار والدخول إلى الجنة فينبغي أن يكون بحيث إذا جاءه الموت وجد كلمة الشهادة بلسانه، وكل ما لا يرضى به لنفسه لا يرضى به لأحد من المسلمين". وقال عليه الصلاة والسلام: "من أصبح في قلبه همة سوى الله فليس من الله في شيء، ومن لم يشفق على المسلمين فليس منهم".

كان هشام بن عبد الملك من خلفاء بني أمية فسأل يوماً أبا حازم وكان من العلماء: ما التدبير في النجاة من أمور الخلافة؟ قال: أن تأخذ الدرهم الذي تأخذه من وجه حلال وأن تضعه في موضع حق. قال: من يقدر على هذا؟ قال: **من يرغب في نعيم الجنان ويرهب من عذاب النيران**.

بيان العينين اللتين هما مشرب شجرة الإيمان

وإذ قد عرفت أصول شجرة الإيمان وعرفت فروعها فاعلم أن هناك عينين للعلم تستمد الشجرة منهما الماء.

العين الأولى: في معرفة الدنيا ولم أُوجد فيها الإنسان

اعلم يا سلطان العالم أن الدنيا منزلة وليست بدار قرار، والإنسان مسافر فأول منازله بطن أمه وآخر منازله لحد قبره، وإنما وطنه وقراره ومكثه واستقراره بعدها. فكل سنة تنقضي من الإنسان فكالمرحلة، وكل شهر ينقضي منه فكاستراحة المسافر في طريقه، وكل أسبوع فكقرية تلقاه، وكل يوم فكفر (الكفر: القرية الصغيرة) سوف يقطعه، وكل

نفس كخطوة يخطوها، وبقدر كل نفس يتنفسه يقرب من الآخرة. وهذه الدنيا قنطرة فمن عمر القنطرة واستعجل بعمارتها فني فيها زمانه، ونسى المنزلة التي هي مصيره ومكانه، وكان جاهلاً غير عاقل. وإنما العاقل الذي لا يشتغل في دنياه إلا لاستعداده لمعاده، ويكتفي منها بقدر الحاجة، ومهما جمعه فوق كفايته كان سماً ناقعاً ويتمنى أن تكون جميع خزائنه وسائر ذخائره رماداً وتراباً لا فضة ولا ذهباً، ولو جمع مهما جمع فإن نصيبه ما يأكله ويلبسه لا سواه، وجميع ما يخلفه يكون عليه حسرة وندامة ويصعب عليه نزعه عند موته، فحلالها حساب وحرامها عذاب، إن كان قد جمع المال من حلال طُلب منه الحساب، وإن كان قد جمع من حرام وجب عليه العذاب. وإن كان إيمانه صحيحاً سالماً لحضرة الديان فلا وجه ليأسه من الرحمة والرضوان، فإن الله جواد كريم غفور رحيم. واعلم أيها السلطان أن راحة الدنيا أيام قلائل، وأكثرها مُنغص بالتعب مشوب بالنصب، وبسببها تفوت راحة الآخرة التي هي الدائمة الباقية والمُلك الذي لا نهاية له ولا فناء، فيسهل على العاقل أن يصبر في هذه الأيام القلائل لينال راحة دائمة بلا انقضاء.

العين الثانية: معرفة النفس الأخير

اعلم يا سلطان العالم أن بني آدم طائفتان: طائفة نظروا إلى شاهد حال الدنيا وتمسكوا بتأميل العمر الطويل. وطائفة عقلاء جعلوا النفس الأخير نصب أعينهم لينظروا إلى ماذا يكون مصيرهم وكيف يخرجون من الدنيا ويفارقونها وإيمانهم سالم، وما الذي ينزل معهم من الدنيا في قبورهم وما الذي يتركونه لأعدائهم من بعدهم ويبقى عليهم وباله ونكاله. وهذه الفكرة واجبة على الخلق، وهي على الملوك وأهل الدنيا أوجب، لأنهم كثيراً أزعجوا قلوب الخلائق وأنفذوا إلى الناس الغلمان بالسيئات وأفزعوا الخليقة وأدخلوا في قلوبهم الرعب، فإن بحضرة الحق تعالى غلاماً اسمه عزرائيل لا مهرب لأحد من مطالبته وتشتيته، وكل موكلي الملوك يأخذون جُعلَهم ذهباً وفضة وطعاماً وصاحب هذا التوكيل لا يأخذ سوى الروح جُعلاً، وسائر موكلي السلاطين تنفع عندهم الشفاعة وهذا الموكل لا تنفع عنده شفاعة شافع، وجميع المُوكلين يمهلون من يوكلون إليه اليوم والليلة والساعة وهذا الموكل لا يمهل نفساً واحداً، وعجائب أحواله كثيرة إلا أنّا نذكر من أحواله خمس حكايات.

يُقال أن ملك الموت دخل على سليمان بن داود عليهما السلام فجعل يحد نظره ويطيل بصره إلى رجل من ندمائه، فلما خرج قال ذلك الرجل: يا نبي الله من كان ذلك الرجل الذي دخل؟ فقال: ملك الموت. فقال: أخاف أن يريد قبض روحي فخلصني من يده. فقال: كيف أخلصك؟ فقال: تأمر الريح أن تحملني في هذه الساعة إلى بلاد الهند لعله يضل عني ولا يجدني. فأمر سليمان الريح فحملته في الوقت والحال فعاد ملك الموت ودخل على سليمان بن داود عليهما السلام فلما دخل عليه قال له: لأي سبب كنت تطيل النظر إلى ذلك الرجل قال: كنت

أتعجب منه لأني أُمرت أن أقبض روحه في أرض الهند وكان بعيداً عنها إلى أن اتفق بحمل الريح له إلى هناك فكان ما قدره الله تعالى.

فالآن يجب أن تعرف حكايات النفس الأخير وتتيقن معرفتها. واعلم أن أهل الغفلة المغتربين لا يحبون استماع حديث الموت لئلا يبرد حب الدنيا في قلوبهم وتتنغص عليهم لذة مأكولهم ومشروبهم. وقد جاء في الخبر أن من أكثر ذكر الموت وظلمة اللحد كان قبره روضة من رياض الجنة، ومن نسي الموت وغفل عن ذكره كان قبره حفرة من النار. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً يصف أجر الشهداء وثواب السعداء الذين قتلوا في معركة حرب الكفار فقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله هل ينال ثواب الشهداء من لم يمت شهيداً؟ فقال عليه الصلاة والسلام: "من ذكر الموت في كل يوم عشرين مرة كان له مثل أجر الشهداء ودرجتهم". وقال عليه الصلاة والسلام: "أكثر من ذكر الموت فإنه يمحو الذنوب ويبرد الدنيا في القلوب". سئل عليه الصلاة والسلام: من أعقل الناس وأحزمهم؟ فقال: "أعقل الناس أكثرهم للموت ذكراً، وأحزمهم أحسنهم له استعداداً له، شرف الدنيا وكرامة الآخرة". فمن عرف الدنيا كما ذكره وكرر في قلبه ذكر النفس الأخير سهلت عليه أمور دنياه وقوي أصل شجرة الإيمان في قلبه وأخذ في النمو والزيادة، ونمت فروع شجرة الإيمان عنده ولقي الله وإيمانه سالم.

في ذكر العدل والسياسة وذكر الملوك وسيرهم

اعلم وتيقّن أن الله سبحانه وتعالى اختار من بني آدم طائفتين وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليبينوا للعباد على عبادته الدليل، ويوضحوا لهم إلى معرفته السبيل، واختار الملوك لفض العباد من اعتداء بعضهم على بعض، ومَلَّكهم أزمة الإبرام والنقض فربط بهم مصالح خلقه في معايشهم بحكمته، وأحَلّهم أشرف محل بقدرته، كما يُسمع في الأخبار: السلطان ظل الله في أرضه. فينبغي أن يُعلم أن من أعطاه الله درجة الملوك وجعله ظله في الأرض فإنه يجب على الخلق محبته ويلزمهم متابعته وطاعته ولا يجوز لهم معصيته ومنازعته. قال الله تعالى:{يا أيُها الذين آمنُوا أطِيعُوا الله وأطِيعُوا الرسُول وأوُلي الأمرَ مِنكُم}، فينبغي لكل من آتاه الله الدين أن يحب الملوك والسلاطين وأن يطيعهم فيما يأمرون، ويعلم أن الله تعالى يعطي السلطنة والمملكة وأنه يؤتي ملكه من يشاء كما قال في محكم تنزيله: {تُؤتِي المِلك مَن تشَاء وتنزَع المِلك مِمن تشاء وتُعِزُ مَن تشاء وتُذِلُ مَن تشاء بيدِك الخير إنِك على كُل شيء قَدير}. والسلطان العادل من عدل بين العباد وحذر من الجور والفساد، والسلطان الظالم شؤم لا يبقى ملكه ولا يدوم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم".

قال زيد بن أسلم رأيت ليلة عمر بن الخطاب يطوف مع العسس فتبعته وقلت أتأذن لي أن أصاحبك، قال نعم. فلما خرجنا من المدينة رأينا ناراً من بعد، فقلنا ربما يكون قد نزل هناك مسافر، فقصدنا النار فرأينا إمرأة أرملة ومعها ثلاثة أطفال وهم يبكون وقد وضعت لهم قدراً على النار وهي تقول: الَهي أنصفني من عمر وخذ لي منه بالحق فإنه

شبعان ونحن جياع. فلما سمع عمر بن الخطاب ذلك تقدم وسلم عليها وقال أتأذنين أن أدنو إليك فقالت إن دنوت بخير فبسم الله. فتقدم وسألها عن حالها وحال جياع وقد بلغ مني ومنهم الجهد والجوع وقد منعهم عن الهجوع. فقال عمر وأي شيء في هذه القدر؟ فقالت: تركت فيها ماء لأشاغلهم به ليظنوا أنه طعام فيصبروا. قال زياد فعاد أمير المؤمنين وقصد دكان الدسم فإبتاع منه دسماً ومضى إلى دكان الدقيق فإبتاع منه ملء جراب ثم وضع الجميع على كاهله ومضى به يطلب المرأة والأطفال. فقلت يا أمير المؤمنين ناولنيه لأحمله عنك، فقال **إن حملته عني فمن يحمل عني ذنوبي ومن يحول بيني وبين دعاء تلك المرأة والأطفال عليّ؟** وجعل يسعى وهو يبكي إلى أن وصلنا إلى المرأة فقالت المرأة: جزاك الله عنا خير الجزاء. فأخذ عمر جزأ من الدقيق وشيئاً من الدسم فوضعهما في القدر وجعل يوقد النار، وكلما أرادت أن تخمد نفخها والرماد يسقط على وجهه ومحاسنه إلى أن إنطبخت القدر فوضع الطبيخ في القصعة، وقال للمرأة كلي فأكلت المرأة والأطفال. فقال عمر: أيتها المرأة لا تدعين على عمر فإنه لم يكن عنده منك ولا من أطفالك خبر.

كان لعمر بن عبد العزيز غلام وكان خازناً لبيت المال، وكان لعمر بنات جئنه يوم عرفة وقلن له غداً العيد ونساء الرعية وبناتهم يلمننا وقلن أنتن بنات أمير المؤمنين ونراكن عريانات، لا أقل من ثياب بيضاء تلبسنها، وبكين عنده، فضاق صدر عمر فدعا غلامه الخازن وقال له أعطني مشاهرتي لشهر واحد. فقال الخازن: يا أمير المؤمنين تأخذ المشاهرة من بيت المال سلفاً، أتظن أن لك عمر شهر فتأخذ مشاهرة شهر، فتحير عمر وقال: نِعم ما قلت أيها الغلام بارك الله فيك، ثم التفت إلى بناته وقال: اكظمن شهواتكن فإن الجنة لا يدخلها أحد إلا بمشقة.

نصيحة وموعظة: دخل شبيب بن شيبة يوماً على المهدى فقال يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك الدنيا فأعط رعيتك قسطاً من طيب عيشك. فقال المهدي وما الذي ينبغي أن تُعطى الرعية؟ فقال: العدل، فإنه إذا نامت الرعية في أمن منك نمت آمناً في قبرك. وقال: احذر يا أمير المؤمنين من يوم لا ليلة بعده، ومن ليلة لا يوم بعدها، وأعدل ما استطعت، فإنك تُجازَي بالعدل، فحلِ نفَسك بِالتقوى وزينهَا فلن يُعارَ تقيُ في النَاسِ من رجلِ، وليس تبلى يدُ المعروفِ، فاحظ بها تربح كثيراً ورأسُ المالِ لم يزَل.

حكمة: قال أبو الحسن الاهوازي في كتاب الفرائد والقلائد: **الدنيا لا تصفو لشارب ولا تبقى لصاحب، فخذ زاداً من يومك لغدك، فلا يبقى يوم عليك ولا غد.** ويقال أنه كان على قبر يعقوب بن ليث مكتوباً هذه الأبيات عملها قبل موته وأمر أن تكتب على قبره وهي هذه: سَلامٌ عَلىَ أهلِ القُبُورِ الدوارِس، كأنُّهم لم يجلِسُوا في المَجَالِسِ. ولم يشَربُوا مِن باردِ الماءِ شربة، ولم يأكلُوا ما بين رطبٍ ويابِس. فقد جاءنِي الموتُ المهولُ بِسكرةٍ فلم تَغن عنِي ألف آلافِ فارِس. فيأَ زائرُ القبرِ اتعظ واعتبر بِنا ولا تك فِي الدُنيا هُدِيتَ بآنسِ خُرَاسان نحويها وأطرافُ فارسِ. وما كُنتَ عن مُلكِ العِراقِ بآيسِ سَلامٌ علىَ الدُنيا وطِيبِ نعِيمِها كأن لم يكُن يعقُوبُ فِيها بجالِسِ.

حكمة: سئل بعض الحكماء أي شي أقرب؟ فقال الأجل. فقيل أي شيء أبعد؟ قال الأمل.

حكمة: سأل أنو شروان بزر جمهر لأي شيء يمكن أن يُجعل العدو صديقاً، قال لأن تخريب العامر أسهل من عمارة الخراب، وكسر الزجاج إذا كان صحيحاً أسهل من تصحيحه إذا كان مكسوراً. وقال صحة الجسم خير من شرب الأدوية، **وترك الذنب خير من الاستغفار**، وكظم الشهوات خير من كظم الحزن، **ومخالفة الهوى في الاستكبار خير من دخول النار**.

حكمة: يقال أن ابن القرية دخل على الحجاج وكان من أكابر أهل زمانه فطنة وعلماً، فسأله الحجاج وقال له: ما الكفر؟ قال: البطر بالنعمة والإياس من الرحمة. فقال ما الرضى؟ قال: **الثقة بقضاء الله والصبر على المكاره**. فقال ما الحلم؟ قال: إظهار الرحمة عند القدرة والرضى عند الغضب. فقال ما الصبر؟ قال: كظم الغيظ والاحتمال لما يراد. فقال ما الكرم؟ قال: حفظ الصديق وقضاء الحقوق. قال ما القناعة؟ قال: الصبر على الجوع والعري عن اللباس. قال ما الغنى؟ قال: استعظام الصغير واستكثار القليل. فقال ما الرفق؟ قال: إصابة الأشياء الكبيرة بالآلة الصغيرة الحقيرة. فقال ما الحمية؟ قال: الوقوف على رأس من هو دونك. قال ما الشجاعة؟ قال: الحملة في وجوه الأعداء والكفار والثبات في موضع الفرار. فقال ما العقل؟ قال: صدق المقال وإرضاء الرجال. فقال ما العدل؟ قال: ترك المراد وصحة السيرة والاعتقاد. فقال ما الإنصاف؟ قال: المساواة عند الدعاوي بين الناس. فقال ما الذل؟ قال: المرض من خلو اليد والانكسار من قلة الرزق. فقال ما الحرص؟ قال: حدة الشهوة عند الرجال. فقال ما الأمانة؟ قال: قضاء الواجب. فقال: ما الخيانة؟ قال: التراخي مع القدرة. قال فما الفهم؟ قال: التفكر وإدراك الأشياء على حقائقها.

الباب السابع في ذكر النساء

خير النساء وأبركهن الحسناء الولود الخفيفة المهر. قال عليه الصلاة والسلام: "**عليكم بالمرأة الحرة فإنها أطهر وأبرك**". وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "التجئوا الى الله عز وجل من شرار النساء واحذورا خيارهن". قال صاحب الكتاب من أراد صلاحه وتدبيره ولم يجد المرأة الحسناء يلهو بها فعليه بالمرأة الدينة فذات الدين خير وأبرك، وإذا جاءت الديانة أتى المال وكان أبرك، لأن المرأة التي لا دين لها فما لها أصل ولا معها بركة، وببركة الديانة يوجد كل خير.

حكاية: كانت فاطمة رضي الله عنها تطحن الجاروشة الى أن أدمت أناملها، فشكت ذلك في بعض الأيام الى بعلها علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فقال: قولي لأبيك يبتع لك خادمة. فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت: يا رسول الله إني مفتقرة الى خادمة تعينني على أشغالي وتحمل عني بعض أثقالي. فقال عليه الصلاة والسلام

ألا أعلمك ما هو خير لك من خادم وأعز من سبع سموات وسبع أرضين؟ فقالت يا رسول الله علمني. فقال صلى الله عليه وسلم: "اذا أردت فقولي قبل منامك ثلاث مرات سبحان الله والحمد لله ولا إله الا الله والله أكبر". وفي الأخبار أنهم لم يكن لهم في البيت إلا كساء كانوا إذا غطوا به رؤوسهم انكشفت أرجلهم. وفي الليلة التي كانت فاطمة عروساً وزفت إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان تحتها جلد شاة وكانا ينامان عليه. وما كان لفاطمة من متاع البيت سوى كساء ومخدة من أدم حشوها ليف. لاجرم ينادي لها يوم القيامة يا أهل الموقف غضوا أبصاركم حتى سيدة النساء فاطمة الزهراء.

والمرأة تُعز عند زوجها وتنول محبتها في قلبه بإكرامها له وطاعتها لأمره وقت خلوته ومجامعته لها، وبحفظها منافعه واجتنابها مضاره وتربيتها ولده واكتنافها في بيته وقلة خروجها من خدرها، وأن تكون عنده كاتمة للسر محتملة للأمر، وأن تحفظ وقت طعامه ومهما علمت أن يشتهيه اصطنعته بطلاقة وجه وبشر، وأن لا تكلفه حاجة ثقيلة، وأن لا تكون لجوجة، وأن تستر نفسها عند منامها، وأن تحفظ سر زوجها في غيبته وحضوره. قال صاحب الكتاب وواجب على الرجال أن يؤدوا حق النساء العورات، وأن يتحفظوا بهن من وجه الرحم والإحسان والمدارة، ومن أحب أن يكون مشفقاً على زوجته رحيماً لها فليذكر عشرة أشياء من أحوالها لينصفها بها. أولها أن المرأة لا تقدر أن تطلقه بغير إذن وهو قادر على ذلك متى شاء، وأنها لا تقدر أن تأخذ شيئاً بغير إذنه وهو يقدر على ذلك، وأنها ما دامت في حباله لا تقدر على زوج سواه وهو يقدر على الزواج عليها، وأنها لا يجوز لها أن تخرج من البيت بغير إذنه وهو يجوز له ذلك، وأنها لا يمكنها أن تعزي وهو يمكنه ذلك، وأنها تخاف منه وهو لا يخافها، وأنها تفارق أمها وأباها وجميع أقاربها وأنها تخدمه دائماً وهو لايخدمها دائماً، وأنها تتلف نفسها إذا كان مريضاً وهو لايغتم لو ماتت. فلهذه الوجوه التي ذكرناها يجب على العقلاء أن يكونوا رحماء على النساء ولا يظلموهن ولا يجوروا عليهن، فإن المرأة أسير الرجل. ويجب على الرجال مداراة النساء لنقص عقولهن، وبسبب نقص عقولهن لا يجوز لأحد أن يتدبر برأيهن ولا يتلفت إلى أقوالهن .

المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه الطاهرين وسلّم. وبعد، فقد قال الله تعالى:{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} (سورة الشورى/١١)، وقال تعالى:{وَلِلهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا}

(سورة الأعراف/١٨٠)، وقال:{قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} (سورة الإسراء/١١٠)، وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ: "إن لله تعالى تسعةً وتسعينَ اسمًا، مائةً إلا واحدًا، من أحصاها دَخَلَ الجنةَ". وقد فَسَّرَ بعضُ أهلِ العِلمِ بأنَّ المرادَ أن يكونَ مُستَظهِرًا لها مع اعتقادِ معانيها، وروى الترمذي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائةً إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر، هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمنُ، الرحيمُ، الملِكُ، القُدُّوسُ، السلامُ، المؤمِنُ، المهَيمِنُ، العزيزُ، الجَبَّارُ، المتَكَبّرُ، الخَالِقُ، البارىءُ، المصوّرُ، الغَفَّارُ، القَهَّارُ، الوهَّابُ، الرزّاقُ، الفتّاحُ، العليمُ، القابِضُ، البَاسِطُ، الخافِضُ، الرافِعُ، المعِزُّ، المذِلُّ، السميعُ، البصيرُ، الحَكَمُ، العَدْلُ، اللطيفُ، الخَبِيرُ، الحَلِيمُ، العظيمُ، الغفورُ، الشكورُ، العلي، الكبيرُ، الحَفِيظُ، المقِيتُ، الحَسِيبُ، الجليلُ، الكَرِيمُ، الرقيبُ، المجيبُ، الواسعُ، الحكيمُ، الودودُ، المجيدُ، البَاعِثُ، الشهيدُ، الحقُّ، الوكيلُ، القويُّ، المتينُ، الوليُّ، الحميدُ، المحْصِي، المبدىءُ، المعيدُ، المحيِي، المميتُ، الحيُّ، القيُّومُ، الواجدُ، الماجدُ، الواحدُ، الصَّمَدُ، القادِرُ، المقتدِرُ، المقَدِّمُ، المؤخِّرُ، الأولُ، الآخِرُ، الظاهرُ، الباطنُ، الوالي، المتعالي، البرُّ، التوابُ، المنتقمُ، العَفوُّ، الرءوفُ، مالكُ الملكِ ذو الجلالِ والإكرام، المقْسِطُ، الجامعُ، الغنيُّ، المغني، المانعُ، الضارُّ، النافعُ، النورُ، الهادي، البديعُ، الباقي، الوارثُ، الرشيدُ، الصَّبورُ، الكافي" لفظ حديث الفريابي، وفي رواية الحسن بن سفيان: "الرافع" بدل "المانع"، وقيل: في رواية النصيبي: "المغيث" بدل "المقيت".

شرح أسماء الله الحسنى

١ . **الله**: أي من له الأُلوهِيَّةُ وهو أنه تعالى مُستَحِقٌّ للعبادةِ وهي نهايةُ الخشوعِ والخضوعِ، قال الله تعالى:{اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} (سورة الزمر/٦٢).

٢ . **الرّحمنُ**: وهو من الأسماءِ الخاصَّةِ بالله، أي أن الله شَمِلَت رحمتُه المؤمنَ والكافرَ في الدنيا، وهو الذي يرحم المؤمنين فقط في الآخرة قال تعالى:{الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ} (سورة الفاتحة/٣).

٣ . **الرحيمُ**: أي الذي يرحَم المؤمنينَ فقط في الآخرة، قالَ تعالى:{وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} (سورة الأحزاب/٤٣).

٤ . **الملِكُ**: أي أنَّ الله موصوفٌ بِتَمامِ المُلكِ، ومُلكه أزلي أبدي، وأما المُلك الذي يعطيه للعبد في الدنيا فهو حادث يزول قال تعالى:{فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ} (سورة طه/١١٤).

٥ . **القُدُّوسُ**: فهو المنزَّهُ عن الشريكِ والوَلَدِ وصفاتِ الخلقِ، كالحاجةِ للمكانِ أو الزمانِ فهو خالقُهما وما سِواهُما، وهو تباركَ وتعالى المُنزه عن النقائصِ الطَّاهِرُ من العُيوبِ قال تعالى:{الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ} (سورة الحشر/٢٣).

٦ . **السَّلامُ**: أي الذي سَلِمَ من كُلّ عيبٍ فلا يوصفُ بالظُّلمِ أو الوَلَدِيَّةِ أو الزَّوجِيَّةِ، قال تعالى:{السَّلامُ الْمُؤْمِنُ} (سورة الحشر/٢٣).

٧ . **المؤمنُ**: وهو الذي يَصدُقُ عبادَه وعدَه ويفي بما ضَمِنَهُ لهم قال تعالى:{السَّلامُ الْمُؤْمِنُ}(سورة الحشر/٢٣).

٨ . **المهيمنُ**: أي الشاهدُ على خلقِهِ بما يكونُ منهم من قولٍ أو فعلٍ أو اعتقادٍ، قال تعالى:{الْمُهَيْمِنُ}(سورة الحشر/٢٣).

٩ . **العزيزُ**: هو القويُّ الذي لا يُغلَبُ لأنه تعالى غَالِبٌ على أمرِهِ، قال تعالى:{وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}(سورة إبراهيم/٤).

١٠ . **الجبَّارُ**: هو الذي جَبَرَ مفاقِرَ الخَلقِ، أو الذي قَهَرَهُم على ما أرادَ، قال تعالى:{الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ}(سورة الحشر/٢٣).

١١ . **المتكبِّرُ**: هو العظيمُ المتعالي عن صفاتِ الخَلقِ القاهِرُ لعُتَاةِ خَلقِهِ، قال تعالى:{الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ}(سورة الحشر/٢٣).

١٢ . **الخالقُ**: هو مُبرِزُ الأشياء من العَدَمِ إلى الوجودِ فلا خالِقَ إلا هو عَزَّ وجَلَّ، قال تعالى:{هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ}(سورة فاطر/٣).

١٣ . **البارئُ**: أي أنه هو خلق الخَلقَ لا عَن مِثالٍ سَبَقَ، قال تعالى:{الْبَارِئُ}(سورة الحشر/٢٤).

١٤ . **المصوِّرُ**: الذي أنشَأَ خَلقَهُ على صُوَرٍ مختلفَةٍ تَتَمَيَّزُ بها على اختلافِها وكَثرَتِها، قال تعالى:{هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ}(سورة الحشر/٢٤).

١٥. **الغفَّارُ**: هو الذي يَغفِرُ الذنوبَ، قال تعالى:{أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ}(سورة الزمر/٥).

١٦. **القهَّارُ**: هو الذي قَهَرَ المخلوقاتِ بالموتِ، قال تعالى:{وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}(سورة الرعد/١٦).

١٧ . **الوهَّابُ**: هو الذي يجودُ بالعطاءِ من غيرِ استِثَابةٍ، أي يثيبُ الطائعينَ فَضلًا منهُ وكَرَمًا، قال تعالى:{الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ}(سورة ص/٩).

١٨ . **الرزَّاقُ**: هو المتكفّل بالرزقِ وقد وسِعَ رِزقُه المخلوقاتِ كُلَّهُم، قال تعالى:{إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}(سورة الذاريات/٥٨).

١٩ . **الفتَّاحُ**: هو الذي يَفتَحُ على خَلقِهِ ما انغلَقَ عليهم من أمورِهِم فيُيَسّرُها لهم فَضلًا منه وكَرَمًا، قال تعالى:{وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ}(سورة سبأ/٢٦).

٢٠ . **العليمُ**: هو العالِمُ بالسرائرِ والخفياتِ التي لا يدرِكُها علمُ المخلوقاتِ، ولا يجوزُ أن يُسمى الله عارفًا، قال تعالى:{وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}(سورة النساء/٢٦).

٢١ . ٢٢ . **القابِضُ الباسِطُ**: هو الذي يَقتُرُ الرزقَ بحكمته ويَبسطُه بجودِهِ وكَرَمِهِ، قال تعالى:{وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ}(سورة البقرة/٢٤٥).

٢٣ . ٢٤ . **الخافضُ الرافعُ**: هو الذي يُخْفِضُ الجبارين ويُذِلُّ المتكبرين ويرفَعُ أولياءَهُ بالطاعةِ فيُعلي مراتِبَهُم.

٢٥ . ٢٦ . **المعِزُّ المذِلُّ**: أي أن الله أعزَّ أولياءَه بالنعيمِ المقيم في الجنةِ وأَذَلَّ الكافرينَ بالخلودِ في النارِ، وفي كتاب الله عز وجل: {وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء} (سورة آل عمران/٢٦).

٢٧ . **السميعُ**: هو السَّامعُ للسِّرِّ والنَّجوى بلا كيفٍ ولا آلةٍ ولا جارحةٍ، وهو سميعُ الدعاءِ أي مجيبُهُ، قال تعالى: {إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} (سورة غافر/٢٠).

٢٨ . **البصيرُ**: أي أنه تعالى يرى المرئيات بلا كيفٍ ولا آلةٍ ولا جارحةٍ، قال تعالى: {وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} (سورة الشورى/١١).

٢٩ . **الحَكَمُ**: أي الحاكِمُ بين الخلقِ في الآخرةِ ولا حَكَمَ غيرُه وهو الحَكَمُ العَدلُ، قال تعالى: {وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} (سورة يونس/١٠٩).

٣٠ . **العَدلُ**: هو المنزَّهُ عن الظُّلمِ والجَورِ لأن الظُّلمَ هو وَضعُ الشّيءِ في غَيرِ مَوضِعِهِ.

٣١ . **اللطيفُ**: هو المحسِن إلى عبادِه في خَفاءٍ وسترٍ من حيث لا يحتسِبون، قال تعالى: {وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} (سورة الأنعام/١٠٣).

٣٢ . **الخبيرُ**: هو المطَّلع على حقيقةِ الأشياءِ فلا تخفى على الله خافيةٌ وهو عالم بالكلّياتِ والجُزئياتِ، ومن أَنكَرَ ذلك كَفَرَ، قال تعالى: {وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} (سورة الأنعام/٧٣).

٣٣ . **الحليمُ**: هو ذو الصَّفحِ والأناةِ الذي لا يَستَفِزُّهُ غَضَبٌ ولا عِصيانُ العُصاةِ، والحليمُ هو الصَّفوحُ مع القُدرَةِ، قال تعالى: {وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ} (سورة الحج/٥٩).

٣٤ . **العظيمُ**: فهو عظيمُ الشأنِ مُنَزَّهٌ عن صفاتِ الأجسامِ، فالله أعظمُ قدرًا من كلّ عظيمٍ، قال تعالى: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} (سورة الشورى/٤).

٣٥ . **الغفورُ**: هو الذي تكثُر منه المغفرةُ، قال تعالى: {أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (سورة الحجر/٤٩).

٣٦ . **الشَّكورُ**: هو الذي يُثيبُ على اليسيرِ من الطَّاعَةِ الكثيرَ من الثَّوابِ، قال تعالى: {إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ} الآية (سورة فاطر/٣٤).

٣٧ . **العليُّ**: هو الذي يَعلو على خَلقِهِ بقهرِهِ وقدرَتِهِ، ويستحيلُ وصفُه بارتفاعِ المكانِ، لأنه تعالى منزّهٌ عن المكانِ والله خالِقُهُ، قال ابن منظور في لسانِ العربِ: العلاءُ الرِّفعة. قال تعالى: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} (سورة الشورى/٤).

٣٨ . **الكبيرُ**: هو الجليلُ كبيرُ الشأنِ، **والله أكبرُ معناه أنَّ الله أكبرُ من كلّ شيءٍ قدرًا**، قال تعالى: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} (سورة سبإ/٢٣).

٣٩ . **الحفيظُ**: معناه الحافِظُ لمن يشاءُ من الشَّرِّ والأذى والهَلَكَةِ، قال تعالى: {وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} (سورة سبأ/٢١).

٤٠ . **المُقيتُ**: هو المقتدِرُ وهو رازقُ القوتِ، قال تعالى:{وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا}(سورة النساء/٨٥).

٤١ . **الحسيبُ**: أي هو المحاسِبُ للعبادِ بما قدَّمت أيديهم، قال تعالى:{وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا}(سورة النساء/٦).

٤٢ . **الجليلُ**: أي الموصوفُ بالجلالِ ورفعةِ القدرِ.

٤٣ . **الكريمُ**: هو الكثيرُ الخيرِ فيبدأُ بالنعمةِ قبلَ الاستحقاقِ، ويتفضّلُ بالإحسانِ من غيرِ استثابةٍ، قال تعالى:{مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ}(سورة الانفطار/٦).

٤٤ . **الرقيبُ**: هو الحافظُ الذي لا يغيبُ عنهُ شيءٌ، قال تعالى:{إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}(سورة النساء/١).

٤٥ . **المجيبُ**: هو الذي يجيبُ المضطرَّ إذا دعاهُ ويغيثُ الملهوفَ إذا استغاثَ به، قال تعالى:{قَرِيبٌ مُّجِيبٌ}(سورة هود/٦١).

٤٦ . **الواسعُ**: هو الذي وَسِعَ رِزقُهُ جميعَ خَلقِهِ، قال تعالى:{وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}(سورة النور/٣٢).

٤٧ . **الحكيمُ**: هو المحكِمُ لخلقِ الأشياءِ كما شاءَ لأنه تعالى عالِمٌ بعواقِبِ الأمورِ، قال تعالى:{وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }(سورة النساء/٢٦).

٤٨ . **الودودُ**: هو الذي يَوَدُّ عبادَهُ الصالحين فيرضى عنهم ويتقبَّلُ أعمالَهم، قال تعالى:{وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ}(سورة البروج/١٤).

٤٩ . **المجيدُ**: هو الواسعُ الكرمِ العالي القدرِ، قال تعالى:{إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ}(سورة هود/٧٣).

٥٠ . **الباعثُ**: هو الذي يبعثُ الخلقَ بعد الموتِ ويجمَعُهُم ليومٍ لا ريبَ فيه، قال تعالى:{وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ}(سورة الحج/٧).

٥١ . **الشَّهيدُ**: هو الذي لا يغيبُ عن علمِهِ شيءٌ، قال تعالى:{إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}(سورة الحج/٧).

٥٢ . **الحَقُّ**: هو الثابتُ الوجودِ الذي لا شَكَّ في وجودِهِ، قال تعالى:{وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ}(سورة النور/٢٥).

٥٣ . **الوَكيلُ**: هو الكفيلُ بأرزاقِ العِبادِ والعالِمُ بأحوالِهِم، قال تعالى: {وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً}(سورة النساء/٨١).

٥٤ . **القَوِيُّ**: هو التَّامُّ القُدرَةِ الذي لا يُعجِزُهُ شيءٌ، **ولا يقالُ الله قوةٌ أو قدرةٌ إنما هو ذو القوةِ والقدرةِ**، والقوة بمعنى القدرة، قال تعالى:{إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}(سورة الحج/٤٠).

٥٥ . **المتينُ**: هو الذي لا يَمَسُّهُ تَعَبٌ ولا لُغوب، قال تعالى:{إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}(سورة الذاريات/٥٨).

٥٦ . **الوليُّ**: هو الناصرُ ينصرُ عبادَه المؤمنينَ، فالأنبياءُ وأتباعُهم هم المنصورون في المعنى لأن عاقبتهم حميدةٌ، قال تعالى:{وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ}(سورة الشورى/٢٨).

٥٧. **الحميدُ**: هو المستحقُّ للحمدِ والثناءِ والمدحِ، قال تعالى:{إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}(سورة لقمان/٢٦).

٥٨ . **المُحصِي**: هو الذي أحصى كل شيء علمًا وعددًا، قال تعالى:{وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا}(سورة الجن/٢٨).

٥٩ . ٦٠ . **المُبدئُ المُعيدُ:** هو الذي ابتدأ الأشياء فأوجدها عن عدمٍ، والمعيدُ هو الذي يعيد الخلق بعد الحياة إلى الممات ثم يعيده بعد الموت إلى الحياة، قال تعالى:{هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ} (سورة البروج/١٣).

٦١ . **المُحيِي:** هو الذي يحيي النطفةَ الميتةَ فيخرجُ منها النَّسَمَةَ الحيةَ ويحيي الأجسامَ الباليةَ بإعادة الأرواح إليها عندَ البعثِ.

٦٢ . **المميتُ:** الذي يميتُ الأحياءَ ويوهِنُ بالموتِ قوةَ الأصحاءِ الأقوياءِ، قال تعالى:{ قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ} (سورة الجاثية/٢٦).

٦٣ . **الحيُّ:** هو الذي لم يَزَل موجودًا وبالحياةِ موصوفًا، قال الطحاويُّ: "**ومن وَصَفَ اللهَ بمعنًى من معاني البشر فقد كَفَر**". قال تعالى:{هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}(سورة غافر/٦٥).

٦٤ . **القَيّومُ:** هو الدائمُ الذي لا يتغيَّر وهو القائمُ بتدبيرِ أمورِ الخلائِق، قال تعالى:{اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} (سورة البقرة/٢٥٥).

٦٥ . **الواجِدُ:** هو الغنيُّ الذي لا يفتقر الى شيء.

٦٦ . **الماجِد:** هو عظيمُ القدرِ واسعُ الكرمِ.

٦٧ . **الواحِدُ:** هو الواحد الذي لا ثاني له في الأزلية والألوهية، قال تعالى:{وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} (سورة ص/٦٥).

٦٨ . **الصَّمدُ:** هو الذي يُصمَدُ إليه في الأمورِ كلِّها ويُقصَدُ في الحوائِجِ والنَّوازِل، قال تعالى:{اللهُ الصَّمَدُ}(سورة الإخلاص/٢).

٦٩ . **القادرُ:** هو الذي لا يعتريه عجزٌ ولا فُتورٌ وهو القادرُ على كل شىءٍ لا يعجزه شىءٌ، قال تعالى:{إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}(سورة الأحقاف/٣٣).

٧٠ . **المقتَدرُ:** هو القادرُ الذي لا يمتنعُ عليه شىءٌ، قال تعالى:{فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ}(سورة القمر/٤٢).

٧١ . ٧٢ . **المقدّم المؤخّر:** هو المنزلُ للأشياء منازلَها يقدِمُ ما يشاءُ منها ويؤخرُ ما يشاءُ بحكمتهِ، روى البخاري ومسلم في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أنت المقدم وأنت المؤخر".

٧٣ . **الأوَّلُ:** هو الأزليُّ القديمُ الذي ليسَ له بدايةٌ، قال الله تعالى:{هُوَ الأَوَّلُ}(سورة الحديد/٣).

٧٤ . **الآخِرُ:** هو الباقي بعدَ فناءِ الخلقِ وهو الدائمُ الذي لا نهاية له، قال تعالى:{هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ}(سورة الحديد/٣).

٧٥ . **الظَّاهِرُ:** هو الظاهرُ فوقَ كلّ شىءٍ بالقهرِ والقوةِ والغَلَبَةِ لا بالمكانِ والصورةِ والكيفيةِ فإنها من صفاتِ الخلقِ، قال تعالى:{هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ}(سورة الحديد/٣).

٧٦ . **البَاطِنُ:** هو الذي لا يستولي عليه توهُّمُ الكيفيةِ، وهو خالقُ الكيفيَّاتِ والصُّوَرِ، قال تعالى:{وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ}(سورة الحديد/٣).

٧٧ . **الوالي**: هو المالكُ لكلّ شيءٍ ونافذُ المشيئةِ في كلّ شيءٍ.

٧٨ . **المتَعَال**: هو المنزَّه عن صفاتِ المخلوقينَ والقاهرُ لخلقِهِ بقدرتِهِ التَّامَّةِ، قال تعالى:{الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ}(سورة الرعد/٩).

٧٩ . **البَرُّ**: هو المحسِنُ إلى عبادِهِ الذي عَمَّ بِرُّهُ وإحسانُه جميعَ خلقِهِ فمنهُم شاكِرٌ ومنهم كافر، قال تعالى:{إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ}(سورة الطور/٢٨).

٨٠ . **التَّوابُ**: هو الذي يَقبَلُ التوبةَ كلَّما تكرَّرَت، قال تعالى:{وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}(سورة التوبة/١٠٤).

٨١ . **المنتقمُ**: هو الذي يبالغُ في العقوبةِ لمن يشاءُ من الظَّالمين وهو الحَكَمُ العَدلُ، قال تعالى:{وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ}(سورة آل عمران/٤).

٨٢ . **العفوُّ**: هو الذي يصفَحُ عن الذنوبِ ويتركُ مجازاة المسيءِ كَرَمًا وإحسانًا، قال تعالى:{إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ}(سورة الحج/٦٠).

٨٣ . **الرَّءوفُ**: هو شديدُ الرَّحمةِ، قال تعالى:{إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} (سورة النحل/٧).

٨٤ . **مالكُ الملْكِ**: الذي يعود إليه المُلك الذي أعطاه لبعض عباده في الدنيا، قال تعالى:{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء}(سورة آل عمران/٢٦)، وليس هذا المُلك الذي هو صفةٌ له أزليةٌ أبديةٌ، لأن الذي وصف نفسه به بقوله {مَالِكَ الْمُلْكِ} (٢٦) هو المُلكُ الذي فَسَّرَ به البخاري وغيره وجه الله في قوله تعالى:{كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ}(سورة القصص/٨٨) إلا ملكه أي سلطانه.

٨٥ . **ذو الجلالِ والإكرامِ**: أي أن الله مستحِقٌّ أن يُجَلَّ فلا يُجحَدَ ولا يُكفَرَ بِهِ، وهو المكرِمُ أهلَ ولايتِهِ بالفوزِ والنورِ التَّامِ يوم القيامةِ، قال تعالى:{وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ}(سورة الرحمن/٢٧).

٨٦ . **المُقسِطُ**: هو العادِلُ في حُكمِهِ المنزَّهُ عن الظُّلمِ والجَورِ لا يُسأَلُ عما يَفعَل.

٨٧ . **الجامِعُ**: هو الذي يجمَعُ الخلائقَ ليومٍ لا ريبَ فيه، قال تعالى:{رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ}(سورة آل عمران/٩).

٨٨ . **الغنيُّ**: هو الذي استغنى عن خلقِه والخلائقُ تفتقِرُ إليه، قال تعالى:{وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء}(سورة محمد/٣٨).

٨٩ . **المغني**: هو الذي جَبَرَ مفاقِرَ الخلقِ وساقَ إليهم أرزاقَهُم، قال تعالى:{وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى}(سورة النجم/٤٨).

٩٠ . **المانِعُ**: هو الذي يمنعُ من يشاءُ ما يشاء.

٩١ . ٩٢ . **الضَّارُّ النَّافِعُ**: هو القادرُ على أن يَضُرَّ من يشاءُ وينفعَ من يشاءُ.

٩٣ . **النُّورُ**: أي الذي بنورِهِ أي بهدايَتِهِ يَهتدِي ذو الغَوَايَةِ فيرشَدُ، قال تعالى:{اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}(سورة النور/٣٥)، أي أن الله تعالى هادي أهل السموات والأرض لنور الإيمان، **فالله تعالى ليس نورًا بمعنى الضوء بل هو الذي خلق النور**.

٩٤ . **الهادي**: هو الذي منَّ على مَن شاءَ من عبادِهِ بالهدايةِ والسَّداد، قال تعالى:{وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (سورة يونس/٢٥).

٩٥ . **البديعُ**: هو الذي خَلَقَ الخلقَ مبدِعًا له ومخترِعًا لا على مِثالٍ سَبَقَ، قال تعالى:{بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} (سورة البقرة/١١٧).

٩٦ . **الباقي**: هو الواجب البقاء الذي لا يجوز عليه خلافُه عقلًا، قال تعالى:{وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ}(سورة الرحمن/٢٧).

٩٧ . **الوارثُ**: هو الباقي بعد فناءِ الخلق، قال تعالى:{وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ}(سورة الحجر/٢٣).

٩٨ . **الرّشيدُ**: هو الذي أَرشَدَ الخَلقَ إلى مصالِحِهِم.

٩٩ . **الصَّبورُ**: هو الذي لا يعاجِلُ العصاةَ بالانتقامِ منهم بل يُؤَخِّرُ ذلك إلى أجلٍ مُسمّى ويُمهِلُهُم إلى وقتٍ معلومٍ.

١٠٠ . **الأحدُ**: هو الواحدُ المنزَّهُ عن صفاتِ المخلوقاتِ، فالله لا شريكَ له في الأزليةِ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**كان الله ولم يكن شيء غيرُه**" رواه البخاري، وقال تعالى:{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}(سورة الإخلاص/١).

١٠١ . **الرَّبُّ**: هو السَّيِّدُ المالِكُ، ولا يقالُ الرَّبُّ أي بالألفِ واللامِ إلا لله عزَّ وَجَلَّ {الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (سورة الفاتحة/٢).

١٠٢ . **القاهِرُ**: فالله القاهِرُ والقَهّارُ أي الغالِبُ لجميعِ خلقِهِ بقدرتِهِ وسلطانِهِ، قال تعالى:{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} (سورة الأنعام/٦١).

١٠٣ . **المجيبُ**: هو الذي يقابِلُ الدّعاءَ والسؤالَ بالعطاءِ والقَبولِ بفضلِه ومَنِّهِ وكرمِهِ، قال تعالى:{ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ}(سورة هود/٦١).

١٠٤ . **الكافي**: هو الذي يكفي المُهِمَّ ويدفَعُ المُلِمَّ، وهو الذي يُكتَفَى بمعونتِهِ عن غيرِهِ، قال تعالى:{أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ}(سورة الزمر/٣٦).

١٠٥ . **الدائمُ**: الباقي.

١٠٦ . **الصادقُ**: هو الذي يَصدُقُ قولُه ووعدُه فما أخبرَ الله عن وقوعِهِ فلا بدَّ من وقوعِهِ، قال تعالى:{وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً}(سورة النساء/١٢٢).

١٠٧ . **المحيطُ**: هو الذي أحاطَت قُدرَتُهُ بجميعِ خَلقِهِ، وأحاطَ بكلّ شيءٍ عِلمًا فلا يَغيبُ عن علمِهِ شيءٌ قال تعالى:{أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ}(سورة فصلت/٥٤).

١٠٨. **المُبينُ**: بمعنى الظاهر، قال تعالى:{وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ}(سورة النور/٢٥).

١٠٩ . **القريبُ**: أي قريبٌ بعلمِهِ من خلقِهِ، فالمطيعُ قريبٌ من الله بلا كيفٍ كما قالَ الإمامُ أبو حنيفة، قال تعالى: {إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ}(سورة سبأ/٥٠).

١١٠ . **الفاطِرُ**: هو الذي فَطَرَ الخَلقَ أي اختَرَعَهُم وأَوجَدَهُم، قال تعالى:{الْحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}(سورة فاطر/١).

١١١ . **العَلَّامُ**: بمعنى العليمِ، قال تعالى:{وَأَنَّ اللهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ}(سورة التوبة/٧٨).

المنقذ من الضلال
والموصل إلى ذي العزة والجلال

فقد سألتني أيها الأخ في الدين، أن أبثّ إليك غاية العلوم وأسرارها، وغائلة المذاهب وأغوارها، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق، مع تباين المسالك والطرق، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد، إلى يفَاعِ الاستفسار، وما استفدته أولاً من علم الكلام، وما اجْتَوْيتُه (يقال: اجتوى الطعام: كرهه) ثانياً من طرق أهل التعليم (أهل التعليم هم من يتبعون الإمام المعصوم، وقد راجت هذه الفكرة عند غلاة الشيعة الإمامية وغيرهم من فرق الباطنية) القاصرين لَدرك الحق على تقليد الإمام، وما ازدريته ثالثاً من طرق التفلسف، وما ارتضيته آخراً من طريقة التصوف، وما انجلى لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل الخلق، من لباب الحق، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد، مع كثرة الطلبة، وما دعاني إلى معاودته بنيْسابورَ بعد طول المدة. فابتدرت لإجابتك إلى مطلبك، بعد الوقوف على صدق رغبتك

ولم أزل في عنفوان شبابي، وريعان عمري، منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين، أقتحم لجّة هذا البحر العميق، وأخوض غَمرَتهُ خَوْضَ الجَسُور، لا خَوْضَ الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة، وأتهجّم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين مُحق ومبطل، ومتسنن ومبتدع. وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري، غريزة وفطرة من الله وضُعتا في جِبِلَّتي، لا باختياري وحيلتي، حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكسرت علي العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا.

فتحرك باطني إلى طلب حقيقة الفطرة الأصلية، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين، والتمييز بين هذه التقليدات، وأوائلها تلقينات، وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات. فقلت في نفسي: أولاً،

إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور، فلا بُد من طلب حقيقة العلم ما هي؟ فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك. ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه، وكل علم لا أمان معه، فليس بعلم يقيني.

١ – مَدَاخِلُ السَفْسَطة وجَحْد العُلوم

ثم فتشت عن علومي فوجدت نفسي عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة إلا في الحسيات والضروريات. فقلت: الآن بعد حصول اليأس، لا مطمع في اقتباس المشكلات إلا من الجليَّات، وهي الحسيات والضروريات، فلا بد من إحكامها أولاً لأتيقن أن ثقتي بالمحسوسات وأماني من الغلط في الضروريات، من جنس أماني الذي كان من قَبلُ في التقليديات، ومن جنس أمان أكثر الخلق في النظريات، أم هو أمان محققٌ لا غدر فيه ولا غائلة له؟ فأقبلت بجد بليغ أتأمل المحسوسات والضروريات، وأنظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها، فانتهي بي طول التشكك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضاً، وأخذت تتسع للشك فيها وتقول: من أين الثقة بالمحسوسات، وأقواها حاسة البصر؟ وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة، ثم، بالتجربة والمشاهدة، بعد ساعة تعرف أنه متحرك وأنه لم يتحرك دفعة (واحدة) بغتة، بل على التدريج ذرة ذرة ، حتى لم يكن له حالة وقوف. وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار. وهذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه، ويكذبه حاكم العقل ويُخوِّنه تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته.

فقلت: قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً، فلعله لا ثقة إلا بالعقليات التي هي من الأوليات، كقولنا: العشرة أكثر من الثلاثة، والنفي والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً، موجوداً معدوماً، واجباً محالاً. فقالت المحسوسات: بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقاً بي، فجاء حاكم العقل فكذبني، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي، فلعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر، إذا تجلى كذَّب العقل في حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه، وعدم تجلي ذلك الإدراك لا يدل على استحالته. فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلاً، وأيدت إشكالها بالمنام، وقالت: أما تراك تعتقد في النوم أموراً، وتتخيل أحوالاً، وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً، ولا تشك في تلك الحالة فيها، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل. فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس أو عقل هو حق بالإضافة إلى حالتك التي أنت فيها. لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك، كنسبة يقظتك إلى منامك، وتكون يقظتك نوماً بالإضافة إليها! فإذا وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها، ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية أنها حالتهم. إذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي لهم، إذا غاصوا في أنفسهم، وغابوا عن حواسهم، أحوالاً لا توافق هذه المعقولات. ولعل تلك الحالة

هي الموت، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "الناسُ نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا". فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة، فإذا مات ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن، ويقال له عند ذلك:{فكشفنا عنكَ غطاءكَ فبصرُكَ اليومَ حديدٌ}[ق: ٢٢].

فلما خطرت لي هذه الخواطر وانقدحت في النفس، حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر، إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل، ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية، فإذا لم تكن مسلمة لم يمكن تركيب الدليل. فأعضل هذا الداء، ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال، لا بحكم النطق والمقال، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف. فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة. ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن (الشرح) ومعناه في قوله تعالى:{فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام}[الأنعام: ١٢٥]، قال: "**هو نور يقذفه الله تعالى في القلب**". فقيل: وما علامته؟ قال: "**التجافي عن دار الغُرُورِ والإنابة إلى دارِ الخُلُود**". فمن ذلك النور ينبغي أن يُطلب الكشف، وذلك النور ينبجس من الجود الإلهي في بعض الأحايين، ويجب الترصد له كما قال صلى الله عليه وسلّم: "إن لربكم في أيامِ دهركم نفحاتٌ ألا فتعرضُوا لها".

والمقصود من هذه الحكايات أن يُعمل كمال الجد في الطلب، حتى ينتهي إلى طلب ما لا يُطلب. فإن الأوليات ليست مطلوبة، فإنها حاضرة. والحاضر إذا طُلب فُقد واختفى. ومن طلب ما لا يُطلب، فلا يُتهم بالتقصير في طلب ما يطلب.

القَولُ فِي أَصْنَافِ الطَّالِبْين

ولما شفاني الله من هذا المرض بفضله وسعة جوده، انحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق:

١. **المتكلمون**: وهم يدَّعون أنهم أهل الرأي والنظر.
٢. **الباطنية**: وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم.
٣. **الفلاسفة**: وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان.
٤. **الصوفية**: وهم يدعون أنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة.

فقلت في نفسي: الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة، فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق، فإن شذَّ الحق عنهم، فلا يبقى في درك الحق مطمع، إذ لا مطمع في الرجوع إلى التقليد بعد مفارقته.

١- عِلْمُ الكَلاَم: مَقْصُوده وحَاصِله

ثم إني ابتدأت بعلم الكلام، فحصَّلته وعقلته، وطالعت كتب المحققين منهم، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف، فصادفته علماً وافياً بمقصوده، غير وافٍ بمقصودي؛ وإنما المقصود منه حفظ عقيدة أهل السنة [على أهل السنة] وحراستها عن تشويش أهل البدعة. فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق، على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار، ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة، فلهجوا بها وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها، فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين، وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب، يكشف عن تلبيسات أهل البدع المحدثة على خلاف السنة المأثورة، فمنه نشأ علم الكلام وأهله. ولقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله تعالى إليه، فأحسنوا الذب عن السنة، والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة، والتغيير في وجه ما أُحدث من البدعة. ولكنهم اعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم، واضطرهم إلى تسليمها إما التقليد، أو إجماع الأمة، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار. وكان أكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم. وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً (أصلاً)، فلم يكن الكلام في حقي كافياً، ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافياً. نعم، لما نشأت صنعة الكلام وكثر الخوض فيه وطالت المدة، تشوق المتكلمون إلى محاولة الذبّ عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور، وخاضوا في البحث عن الجواهر والأعراض (الجوهر: الأصل وفي المصطلح الماهية. العرض هو الذي يحتاج إلى موضع يقوم به كاللون المحتاج الى جسم يحله) وأحكامها. ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم، لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى، فلم يحصل منه ما يمحق بالكلية ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق، ولا أبعدُ أن يكون قد حصل ذلك لغيري!

٢- الفَلسَفَة

ثم إني ابتدأت ، بعد الفراغ من علم الكلام، بعلم **الفلسفة** وعلمت يقيناً، أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم، من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك العلم، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائله، وإذا ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقّاً. ولم أر أحداً من علماء الإسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك.

ولم يكن في كتب "المتكلمين" من كلامهم، حيث اشتغلوا بالرد عليهم، إلا كلمات معقدة مبددة، ظاهرة التناقض والفساد، لا يظن الاغترار بها بعاقل عامي، فضلاً عمن يدعي دقائق العلوم. فعلمت أن رد المذهب قبل فهمه والإطلاع على كنهه رمى في عماية، فشمرت عن ساق الجد، في تحصيل ذلك العلم من الكتب، بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ، وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية، وأنا ممنو بالتدريس والإفادة لثلاثمائة نفر من الطلبة ببغداد.

فأطلعني الله سبحانه وتعالى بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلسة على منتهى علومهم في أقل من سنتين. ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه بعد فهمه قريباً من سنة، أعاوده وأردده وأتفقد غوائله وأغواره، حتى اطَّلعت على ما فيه من خداع وتلبيس، وتحقيق وتخييل، إطلاعاً لم أشك فيه.

فاسمع الآن حكايتهم وحكاية حاصل علومهم، فإني رأيتهم أصنافاً، ورأيت علومهم أقساماً، وهم على كثرة أصنافهم يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين، وبين الأواخر منهم والأوائل، تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه.

أَصْنَافُ الفَلاَسِفةَ وشُمول وَصْمَة الكُفرِ كافَّتهمُ

إعلم أنهم ، على كثرة فرقهم واختلاف مذاهبهم، ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: الدهريون، والطبيعيون، والإلهيون.

الصنف الأول، الدهريون: وهم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر، العالم القادر، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه بلا صانع، ولم يزل الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، كذلك كان، وكذلك يكون أبداً. **وهؤلاء هم الزنادقة.**

والصنف الثاني، الطبيعيون: وهم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة، وعن عجائب الحيوان والنبات، وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات، فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى وبدائع حكمته، مما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم، مطلع على غايات الأمور ومقاصدها. ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع إلا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان، لا سيما بنية الإنسان. إلا أن هؤلاء، لكثرة بحثهم عن الطبيعة، ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به. فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فتنعدم، ثم إذا انعدمت، فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا. فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود، فجحدوا الآخرة، وأنكروا الجنة والنار، والحشر والنشر، والقيامة والحساب، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب، ولا للمعصية عقاب، فانحل عنهم اللجام وأنهمكوا في الشهوات إنهماك الأنعام. **وهؤلاء أيضاً زنادقة** لأن أصل الإيمان هو الإيمان بالله واليوم الآخر. وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر، وإن آمنوا بالله وصفاته.

والصنف الثالث، الإلهيون: وهم المتأخرون منهم، مثل سقراط، وهو أستاذ أفلاطون، وأفلاطون أستاذ أرسطاطاليس. وأرسطاطاليس هو الذي رتب لهم المنطق، وهذَّب لهم العلوم، وحرّر لهم ما لم يكن محرراً من قبلُ، وأنضَجَ لهم ما كان فِجّاً من علومهم، وهم بجملتهم ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية والطبيعية، وأوردوا في الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم. وكفى الله المؤمنين القتال بتقاتلهم. ثم رد أرسطاطاليس على أفلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من الإلهيين ردّاً لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم، إلا أنه استبقى أيضاً من رذائل كفرهم وبدعتهم بقايا لم يوفق للنزوع عنها، فوجب تكفيرهم، وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميين، كابن سينا

والفارابي وغيرهم. على أنه لم يقم بنقل علم أرسطاطاليس أحد من متفلسفة الإسلاميين كقيام هذين الرجلين. وما نقله غيرهما ليس يخلو من تخبيط وتخليط يتشوش فيه قلب المطالع حتى لا يفهم. وما لا يُفهم كيف يُرد أو يقبل؟

أَقْسَامِ عُلومِهم

إعلم أن علومهم، بالنسبة إلى الغرض الذي نطلبه، ستة أقسام: رياضية، ومنطقية، وطبيعية، وإلهية، وسياسية، وخلقية.

١ – **أما الرياضية**: فتتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم (أي الفلك)، وليس يتعلق شيء منها بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً، بل هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجاحدته بعد فهمها ومعرفتها. وقد تولدت منها آفتان:

احداهما الأولى: أن من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ومن ظهور براهينها، فَيَحْسُن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة، ويحسب أن جميع علومهم في الوضوح وفي وثاقة البرهان كهذا العلم. ثم يكون قد سمع من كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ما تناولته الألسن فيكفر بالتقليد المحض، ويقول: لو كان الدين حقاً لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم! فإذا عرف بالتسامع كفرهم وجحدهم، استدل على أن الحق هو الجحد والإنكار للدين. وكم رأيت ممن يضل عن الحق بهذا العذر ولا مستند له سواه!

الآفة الثانية: نشأت من صديق للإسلام جاهل، ظن أن الدين ينبغي أن يُنصر بإنكار كل علم منسوب إليهم، فأنكر جميع علومهم وادعى جهلهم فيها، حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع. فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع، لم يشك في برهانه، ولكن اعتقد أن الإسلام مبني على الجهل وإنكار البرهان القاطع، فيزداد للفلسفة حبّاً وللإسلام بغضاً. **ولقد عظُم على الدين جناية من ظن أن الإسلام يُنصر بإنكار هذه العلوم، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والإثبات**، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية. وقوله صلى الله عليه وسلّم: "إن الشمس والقمر آيتان من آياتِ الله تعالى لا ينخسفانِ لموتِ أحدٍ ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله تعالى وإلى الصلاة". وليس في هذا ما يوجب إنكار علم الحساب المعرف بمسير الشمس والقمر واجتماعهما أو مقابلهما على وجه مخصوص.

٣– طُرُق الصُّوفِيَّة

ثم إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل. وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يُتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله.

وكان العلم أيسر عليّ من العمل. فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل: "قوت القلوب" لأبي طالب المكي رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي، قدس الله

أرواحهم، وغيرهم من المشايخ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع. فظهر لي أن أخص خواصهم، ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات. فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال، لا أصحاب الأقوال. وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبقَ إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والسلوك. وكان قد حصل معي، من العلوم التي مارستها والمسالك التي سلكتها في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية، **إيمانٌ يقينيٌ بالله تعالى وبالنبُوّة وباليوم الآخر**. فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد رسخت في نفسي، لا بدليل معين محرر بل بأسبابٍ وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلُها. وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكف النفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كله قطعُ علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكُنه الهمة على الله تعالى. وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال، والهرب من الشواغل والعلائق. ثم لاحظت أحوالي، فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أحدقت بي من الجوانب، ولاحظت أعمالي-أحسنها التدريس والتعليم- فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة.

وكانت حوادث الزمان، ومهمات العيال، وضرورات المعاش، تغير فيَّ وجه المراد، وتشوش صفوة الخلوة. وكان لا يصفو لي الحال إلا في أوقات متفرقة. لكني مع ذلك لا أقطع طمعي منها، فتدفعني عنها العوائق، وأعود إليها. ودمت على ذلك مقدار عشر سنين. وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به: أني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق. بل لو جُمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً. وبالجملة، فماذا يقول القائلون في طريقة، طهارتها -وهي أول شروطها- تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة، استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله؟

سَبَب نشر العِلْم بعَدْ الإعرَاضِ عَنه

ثم إني لما واظبت على العزلة والخلوة قريباً من عشر سنين، بان لي في أثناء ذلك على الضرورة من أسباب لا أحصيها، مرة بالذوق، ومرة بالعلم البرهاني، ومرة بالقبول الإيماني، أن الإنسان خُلق من بدن وقلب – وأعني بالقلب حقيقة روحه التي هي محل معرفة الله دون اللحم والدم الذي يشارك فيه الميت والبهيمة-، وأن البدن له صحة بها سعادته ومرض فيه هلاكه، وأن القلب كذلك له صحة وسلامة، ولا ينجو{إلا من أتى الله بقلب سليم}[الشعراء:٨٩]، وله مرض فيه هلاكه الأبدي الأخروي، كما قال تعالى:{في قلوبهم مرضٌ} [البقرة:١٠]،

وأن الجهل بالله سم مهلك، وأن معصية الله بمتابعة الهوى داؤه الممرض، وأن معرفة الله تعالى ترياقه المحيي، وطاعته بمخالفة الهوى دواؤه الشافي...

وعلى الجملة، فالأنبياء عليهم السلام أطباء أمراض القلوب. وإنما فائدة العقل وتصرفه أن عرّفنا ذلك وشهد للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعجز عن درك ما يُدرك بعين النبوة، وأخذ بأيدينا وسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين، وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين. فإلى ههنا مجرى العقل ومخطاه وهو معزول عما بعد ذلك، إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه. فهذه أمور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة، في مدة الخلوة والعزلة. ثم رأينا فتور الاعتقادات في أصل النبوة، ثم في حقيقة النبوة، ثم في العمل بما شرحته النبوة، وتحققنا شيوع ذلك بين الخلق، فنظرت إلى أسباب فتور الخلق ، وضعف إيمانهم ، فإذا هي أربعة:

١ – سبب من الخائضين في **علم الفلسفة**؛

٢ – وسبب من الخائضين في **طريق التصوف**؛

٣ – وسبب من المنتسبين الى **دعوى التعليم**؛

٤– وسبب من معاملة **الموسومين بالعلم** فيما بين الناس.

فإني تتبعت مدةً آحاد الخلق، أسألُ من أن يُقصر منهم في متابعة الشرع، واسأله عن شبهته وأبحث عن عقيدته وسره وقلت له: ما لك تقصر فيها؟ **فإن كنت تؤمن بالآخرة ولست تستعد لها وتبيعها بالدنيا، فهذه حماقة!** فإنك لا تبيع الاثنين بواحد، فكيف تبيع ما لا نهاية له بأيام معدودة؟ وإن كنت لا تؤمن، فأنت كافر! فدبر نفسك في طلب الإيمان، وانظر ما سبب كفرك الخفي الذي هو مذهبك باطناً، وهو سبب جرأتك ظاهراً، وإن كنت لا تصرح به تجملاً بالإيمان وتشرفاً بذكر الشرع!

فقائل يقول: إن هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه لكان العلماء أجدر بذلك، وفلان من المشاهير بين الفضلاء لا يصلي، وفلان يشرب الخمر، وفلان يأكل أموال الأوقاف وأموال اليتامى، وفلان يأكل إدرار السلطان ولا يحترز عن الحرام، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة! وهلم جراً إلى أمثاله.

وقائل ثان: يدعي علم التصوف، **ويزعم أنه قد بلغ مبلغاً ترقّى عن الحاجة إلى العبادة!**

وقائل ثالث: يتعلل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة! **وهؤلاء هم الذين ضلوا عن التصوف**.

وقائل رابع لقي أهل التعليم فيقول: الحق مُشكِل، والطريق إليه متعسر، والاختلاف فيه كثير، وليس بعض المذاهب أولى من بعض، وأدلة العقول متعارضة، فلا ثقة برأي أهل الرأي، والداعي إلى التعليم متحكم لا حجة له، فكيف أدع اليقين بالشك ؟

وقائل خامس يقول: لست أفعل هذا تقليداً، ولكني قرأت علم الفلسفة وأدركت حقيقة النبوة، وأن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة، وأن المقصود من تعبداتها ضبط عوام الخلق وتقييدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال في الشهوات، فما أنا من العوام الجُهال حتى أدخل في حجر التكليف، وإنما أنا من الحكماء أتبع

الحكمة وأنا بصير بها، مستغن فيها عن التقليد! هذا منتهى إيمان من قرأ مذهب فلسفة الإلهيين منهم، وتعلم ذلك من كتب ابن سينا وأبي نصر الفارابي. وهؤلاء هم المتجملون بالإسلام. وربما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن، ويحضر الجماعات والصلوات، ويُعظِّم الشريعة بلسانه، ولكنه مع ذلك لا يترك شرب الخمر وأنواعاً من الفسق والفجور! وإذا قيل له: إن كانت النبوة غير صحيحة، فلم تصلي؟ فربما يقول: لرياضة الجسد، ولعادة أهل البلد، وحفظ المال والولد! وربما قال: الشريعة صحيحة، والنبوة حق! فيقال: فلمَ تشرب الخمر؟ فيقول: إنما نُهي عن الخمر لأنها تورث العداوة والبغضاء، وأنا بحكمتي محترز عن ذلك، وإني أقصد به تشحيذ خاطري. حتى أن ابن سينا ذكر في وصية له كتب فيها: أنه عاهد الله تعالى على كذا وكذا، وأن يُعظم الأوضاع الشرعية، ولا يقصر في العبادات الدينية، ولا يشرب تلهياً بل تداوياً وتشافياً. فكان منتهى حالته في صفاء الإيمان، والتزام العبادات، أن استثنى شرب الخمر لغرض التشافي. فهذا إيمان من يدعي الإيمان منهم. وقد انخدع بهم جماعة، وزادهم انخداعاً ضعف اعتراض المعترضين عليهم، إذ اعترضوا بمجاهدة علم الهندسة والمنطق، وغير ذلك مما هو ضروري لهم، على ما بينا علته من قبل.

فلما رأيت أصناف الخلق قد ضعف إيمانهم إلى هذا الحد بهذه الأسباب، ورأيت نفسي ملية بكشف هذه الشبهة، حتى كان إفضاح هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء، لكثرة خوضي في علومهم وطرقهم –أعني طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسمين من العلماء– انقدح في نفسي أن ذلك متعين في هذا الوقت، محتوم. فماذا تغنيك الخلوة والعزلة، وقد عم الداء، ومرض الأطباء، وأشرف الخلق على الهلاك؟ ثم قلت في نفسي: متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة ومصادمة هذه الظلمة، والزمان زمان الفترة، والدور دور الباطل، ولو اشتغلت بدعوة الخلق عن طرقهم إلى الحق، لعاداك أهل الزمان بأجمعهم، وأنَّى تقاومهم فكيف تعايشهم، ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد، وسلطان متدين قاهر؟ فترخصت بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة تعللاً بالعجز عن إظهار الحق بالحجة. فقدر الله تعالى أن حرك داعية سلطان الوقت من نفسه، لا بتحريك من خارج، فأمر أمر إلزام بالنهوض إلى نيسابور، لتدارك هذه الفترة. وبلغ الإلزام حداً كان ينتهي، لو أصررت على الخلاف، إلى حد الوحشة. فخطر لي أن سبب الرخصة قد ضعف، فلا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة، وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق، ولِم ترخص لنفسك عُسْرَ معاداة الخلق، والله سبحانه وتعالى يقول:{بسم الله الرحمن الرحيم* الم. أحَسِبَ الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يُفَتَنونَ ولقد فتنّا الذينَ من قبلهم}، الآية [العنكبوت: ١–٣]. ويقول عز وجل لرسوله وهو أعز خلقه:{ولقدَ كُذّبَتْ رُسلٌ من قبلكَ فصَبَروا على ما كُذّبوا وأُوذوا، حتى أتاهم نصرُنا، ولا مبَدّلَ لكلماتِ الله، ولقد جاءك من نبأ المرسلين}[الأنعام:٣٤]. ويقول عز وجل:{بسم الله الرحمن الرحيم* يس والقرآن الحكيم...} إلى قوله:{إنما تنذرُ من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيبِ}[يس:١–١١]. فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات، فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة، والخروج من الزاوية. وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة، تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد قدّرها الله سبحانه

على رأس هذه المائة. فاستحكم الرجاء، وغلب حسن الظنّ بسبب هذه الشهادات، وقد وعد الله سبحانه بإحياء دينه على رأس كل مائة. ويسّر الله تعالى الحركة إلى نيسابور للقيام بهذا المهم في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وأربع مائة. وكان الخروج من بغداد في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين وأربع مائة، وبلغت مدة العزلة إحدى عشر سنة. وهذه حركة قدّرها الله تعالى، وهي من عجائب تقديراته التي لم يكن لها انقداح في القلب في هذه العزلة، كما لم يكن الخروج من بغداد والنزوع عن تلك الأحوال مما خطر إمكانه أصلاً بالبال. والله تعالى مقلب القلوب والأحوال و"قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن". وأنا أعلم أني، وإن رجعت إلى نشر العلم، فما رجعت! فإن الرجوع عَودٌ إلى ما كان، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يُكتسب الجاه، وأدعو إليه بقولي وعملي، وكان ذلك قصدي ونيتي. وأما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يُترك الجاه، ويُعرف به سقوط رتبة الجاه. هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي، يعلم الله ذلك مني، وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري، ولست أدري أأصِل مرادي أم أُخترم (يقال: اخترمته المنية، أى أخذته) دون غرضي؟ ولكني اؤمن إيمان يقين ومشاهدة أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأني لم أتحرك، لكنه حركني، وأني لم أعمل، لكنه استعملني. فأسأله أن يصلحني أولاً، ثم يُصلح بي، ويهديني، ثم يهدي بي، وأن يريني الحق حقاً ويرزقني اتباعه، ويريني الباطل باطلاً، ويرزقني اجتنابه.

ومن نظر في أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما ورد من الأخبار في اهتمامه بإرشاد الخلق، وتلطفه في جرّ الناس بأنواع الرفق واللطف إلى تحسين الأخلاق وإصلاح ذات البين، وبالجملة إلى ما يصلح به دينهم ودنياهم، حصل له علم ضروري بأن شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته أعظم من شفقة الوالد على ولده. وإذا نظر إلى عجائب ما ظهر عليه من الأفعال، وإلى عجائب الغيب الذي أخبر عنه القرآن على لسانه وفي الأخبار، وإلى ما ذكره في آخر الزمان، فظهر ذلك كما ذكره، علم علماً ضرورياً أنه بلغ الطور الذي وراء العقل، وانفتحت له العين التي ينكشف منها الغيب الذي لا يدركه إلا الخواص، والأمور التي لا يدركها العقل.

فهذا هو منهاج تحصيل العلم الضروري بتصديق النبي صلى الله عليه وسلم. فجرب وتأمل القرآن وطالع الأخبار، تعرف ذلك بالعيان. وهذا القدر يكفي في تنبيه المتفلسفة ، ذكرناه لشدة الحاجة إليه في هذا الزمان.

والحقيقة، أن العالم الحقيقي لا يقارف معصية إلا على سبيل الهفوة، ولا يكون مصراً على المعاصي أصلاً. إذ العلم الحقيقي ما يعرّف أن المعصية سمٌّ مهلك، وأن الآخرة خير من الدنيا. ومن عرَف ذلك، لا يبيع الخير بما هو أدنى منه. وهذا العلم لا يحصل بأنواع العلوم التي يشتغل بها أكثر الناس. فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم إلا جرأة على معصية الله تعالى. وأما العلم الحقيقي، فيزيد صاحبه خشية وخوفاً ورجاءً، وذلك يحول بينه وبين المعاصي إلا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر في الفترات، وذلك لا يدل على ضعف الإيمان. فالمؤمن مفتنٌ توّابٌ، وهو بعيدٌ عن الإصرار والإكباب.

هذا ما أردت أن أذكره في ذم الفلسفة والتعليم وآفاتهما وآفات من أنكر عليهما ، لا بطريقه.

فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة

الفصل الأول : الشرع والبحث عن الحق

أما بعد ... فإني رأيتك أيها الأخ المشفق، والصديق المتعصب، موغر الصدر، منقسم الفكر لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة، على بعض كتبنا المصنفة في أسرار معاملات الدين وزعمهم أن فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين، والمشايخ المتكلمين، وأن العدول عن مذهب الأشعري، ولو في قيد شبر كفر، ومباينته ولو في شيء نزر، ضلال وخسر.

فهون أيها الأخ المشفق المتعصب على نفسك، ولا تضق به صدرك، وفُلَّ من غَرْبِك قليلاً، واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً، واستحقر من لا يحسد ولا يقذف، واستصغر من بالكفر أو الضلال لا يعرف. فأي داع (يقصد داعية إلى الحق) أكمل وأعقل من سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم؟ وقد قالوا: إنه مجنون من المجانين!! وأي كلام أجل وأصدق من كلام رب العالمين؟ وقد قالوا إنه أساطير الأولين!! وإياك أن تشتغل بخصامهم، وتطمع في إفحامهم، فتطمع في غير مطمع، وتصوت في مسمع. أما سمعت ما قيل :

كل العداوات قد ترجى سلامتها　　إلا عداوة من عاداك من حسد

ولو كان فيه مطمع لأحد من الناس، لما تلي على أجلهم رتبة آيات اليأس. أو ما سمعت قوله تعالى:{وإن كان كبر عليك إعراضهم، فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض، أو سلماً في السماء، فتأتيهم بآية، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين}. وقوله تعالى:{ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا: إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون}.وقوله تعالى:{ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين}. وقوله تعالى:{ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة، وكلمهم الموتى، وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون}.

واعلم أن حقيقة الكفر والإيمان وحدَّهما، والحق والضلال وسرهما، لا ينجلي للقلوب المدنسة بطلب الجاه والمال وحبهما، بل إنما ينكشف ذلك لقلوب طُهرت من وسخ أوضار الدنيا أولاً، ثم صُقِلت بالرياضة الكاملة ثانياً، ثم نوِّرت بالذكر الصافي ثالثاً، ثم غُذيت بالفكر الصائب رابعاً، ثم زُينت بملازمة حدود الشرع خامساً، حتى فاض عليها النور من مشكاة النبوة، وصارت كأنها مرآة مجلوة، وصار مصباح الإيمان في زجاجة قلبه، مشرق الأنوار، يكاد زيته يضيء ولم لم تمسسه نار.

وأنى تتجلى أسرار الملكوت لقوم إلههم هواهم!! ومعبودهم سلاطينهم !!! وقبلتهم دراهمهم ودنانيرهم !!! وشريعتهم رعونتهم !!! وإرادتهم جاههم وشهواتهم!! وعبادتهم خدمتهم أغنياءهم !!! وذكرهم وساوسهم !!! وكنزهم سواسهم !!! وفكرهم استنباط الحيل، لما تقتضيه حشمتهم !!! فهؤلاء من أين تتميز لهم ظلمة الكفر من ضياء الإيمان؟ أبإلهام إلهي؟ ولم يفرغوا القلوب من كدورات الدنيا لقبولها. أم بكمال علمي؟ **وإنما بضاعتهم في**

العلم، مسألة النجاسة، وماء الزعفران وأمثالهما. هيهات!! هيهات!! هذا المطلب أنفس وأعز من أن يدرك بالمنى، أو ينال بالهوينا. فاشتغل أنت بشأنك، ولا تضيع فيهم بقية زمانك. {فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا، ذلك مبلغهم من العلم، إن ربك أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى}.

الفصل الثاني : التكفير بسبب الاختلاف المذهبي ناتج عن التقليد ولا أساس له

فأما أنت إن أردت أن تنتزع هذه الحسكة (الحسك نبات له ثمرة خشنة تتعلق بأصواف الغنم وأوبار الإبل) من صدرك، وصدر من هو في حالك، ممن لا تحركه غواية الحسود، ولا تقيده عماية التقليد، بل تعطشه إلى الاستبصار لحزازة إشكال أثارها فكر، وهيجها نظر، فخاطب نفسك وصاحبك، وطالبه بحد الكفر(أي تعريفه)، فإن زعم أن حد الكفر ما يخالف مذهب الأشعري، أو مذهب المعتزلي، أو مذهب الحنبلي أو غيرهم، فاعلم أنه غِر بليد، قد قيده التقليد، فهو أعمى من العميان، فلا تضيع بإصلاحه الزمان.

ولعلك إن أنصفت علمت أن من جعل الحق وقفاً على واحد من النظار بعينه، فهو إلى الكفر والتناقض أقرب. أما الكفر فلأنه نزله منزلة النبي المعصوم من الزلل الذي لا يثبت الإيمانُ إلا بموافقته، ولا يلزم الكفرُ إلا بمخالفته. وأما التناقض فهو أن كل واحد من النظار يوجب النظر، وأنك لا ترى في نظرك إلا ما رأيت، وكل ما رأيته حجة. وأي فرق بين من يقول قلدني في مذهبي، وبين من يقول قلدني في مذهبي ودليلي جميعاً، وهل هذا إلا التناقض؟

الفصل الثالث : التكفير يقع على من يكذب الرسول صلى الله عليه وسلم

لعلك تشتهي أن تعرف حد الكفر، بعد أن تتناقض عليك حدود أصناف المقلدين. فاعلم أن شرح ذلك طويل، ومدركه غامض، ولكني أعطيك علامة صحيحة فتطردها وتعكسها، لتتخذ مطمح نظرك، وترعوي بسببها عن تكفير الفرق، وتطويل اللسان في أهل الإسلام، وإن اختلفت طرقهم ماداموا متمسكين بقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، صادقين بها، غير مناقضين لها.

فأقول : الكفر: هو تكذيب الرسول، عليه الصلاة والسلام، في شيء مما جاء به. والإيمان: **تصديقه في جميع ما جاء به**. فاليهودي والنصراني كافران لتكذيبهما للرسول عليه الصلاة والسلام. والبرهمي: كافر بالطريق الأولى لأنه أنكر مع رسولنا سائر المرسلين. والدهري كافر بالطريق الأولى لأنه أنكر مع رسولنا المرسل سائر الرسل. وهذا لأن الكفر حكم شرعي كالرق والحرية مثلاً، إذ معناه إباحة الدم والحكم بالخلود في النار. ومدركه شرعي، **فيُدرك إما بنص، وإما بقياس على منصوص**. وقد وردت النصوص في اليهود والنصارى، والتحق بهم بالطريق الأولى البراهمة والثنوية والزنادقة والدهرية، وكلهم مشركون مكذبون للرسل. فكل كافر مكذب للرسل، وكل مكذب للرسل فهو كافر. فهذه هي العلامة المطردة المنعكسة.

الفصل الرابع : للوجود خمسة مراتب

اعلم أن الذي ذكرناه مع ظهوره، تحته غور، بل تحته كل الغور، لأن كل فرقة تكفر مخالفها، وتنسبه إلى تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام. فالحنبلي يكفر الأشعري، زاعماً أنه كذب الرسول في إثبات الفوق لله تعالى وفي الاستواء على العرش. والأشعري يكفره زاعماً أنه مشبه وكذَّب الرسول في أنه {ليس كمثله شيء}. والأشعري يكفر المعتزلي زاعماً أنه كذب الرسول في جواز رؤية الله تعالى، وفي إثبات العلم والقدرة والصفات له. والمعتزلي يكفر الأشعري، زاعماً أن إثبات الصفات تكثير للقدماء، وتكذيب للرسول في التوحيد. ولا ينجيك من هذه الورطة إلا أن تعرف حد التكذيب والتصديق، وحقيقتهما فيه. فينكشف لك غلو هذه الفرق، وإسرافها في تكفير بعضها بعضاً.

فأقول: التصديق إنما يتطرق إلى الخبر، بل إلى المُخبِر. وحقيقته **الاعتراف بوجود ما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن وجوده**. إلا أن للوجود خمس مراتب، ولأجل الغفلة عنها نسبت كل فرقة مخالفها إلى التكذيب. فإن الوجود: ذاتي، وحسي، وخيالي، وعقلي، وشبهي. فمن اعترف بوجود ما أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام عن وجوده، بوجه من هذه الوجوه الخمسة فليس بمكذب على الإطلاق.

....

وعن هذا يتضح لك أن هاهنا مقامين، أحدهما: مقام عوام الخلق، والحق فيه الاتباع والكف عن تغيير الظاهر رأساً، والحذر من إبداع التصريح بتأويل لم تصرح به الصحابة، وحسم باب السؤال رأساً، والزجر عن الخوض في الكلام والبحث، واتباع ما تشابه من الكتاب والسنة. كما رُوي عن عمر رضي الله عنه أنه سأله سائل عن آيتين متعارضتين، فعلاه بالدرة. وكما رُوي عن مالك رحمه الله أنه سئل عن **الاستواء**، فقال: **الاستواء معلوم، والإيمان به واجب، والكيفية مجهولة، والسؤال عنه بدعة**.

المقام الثاني بين النظار الذي اضطربت عقائدهم المأثورة المروية، فينبغي أن يكون بحثهم بقدر الضرورة، وتركهم الظاهر بضرورة البرهان القاطع، ولا ينبغي أن يُكفِّر بعضهم بعضاً بأن يراه غالطاً فيما يعتقده برهاناً. فإن ذلك ليس أمراً هيناً سهل المدرك، وليكن للبرهان بينهم قانون متفق عليه يعترف كلهم به، فإنهم إذا لم يتفقوا في الميزان لم يمكنهم رفع الخلاف بالوزن. والناس يختلفون في التجربة والتواتر، فقد يتواتر عند واحد ما لا يتواتر عند غيره، وقد يتولى تجربة ما لا يتولاه غيره، إما لالتباس قضايا الوهم بقضايا العقل، وإما لالتباس الكلمات المشهورة المحمودة بالضروريات والأوليات، كما فصلنا ذلك في كتاب "محك النظر". ولكن بالجملة إذا حصلوا تلك الموازين وحققوها، أمكنهم الوقوف عند ترك العناد على مواقع الغلط على يسر.

الفصل الثامن: تأويل أصول العقائد بدون برهان قاطع يؤدي إلى التكفير

من الناس من يبادر إلى التأويل بغلبات الظنون من غير برهان قاطع، ولا ينبغي أن يُبادَر أيضاً إلى كفره في كل مقام، بل يُنظر إليه، فإن كان تأويله في أمر لا يتعلق بأصول العقائد ومهماتها فلا نكفره، وذلك كقول بعض الصوفية إن

المراد برؤية الخليل عليه السلام الكوكب والقمر والشمس وقوله:{هذا ربي} غير ظاهرها، بل هي جواهر نورانية ملكية، ونورانيتها عقلية لا حسية، ولها درجات في الكمال ونسبة ما بينها في التفاوت، كنسبة الكوكب والقمر والشمس. ويستدل عليه بأن الخليل عليه السلام، أجلَّ من أن يعتقد في جسم أنه إله، حتى يحتاج إلى أن يشاهد أفوله. أفترى أنه لو لم يأفل أكان يتخذه إلها لو لم يعرف استحالة الإلهية من حيث كونه جسماً مقدراً؟ واستُدِل بأنه كيف يمكن أن يكون أول ما رآه الكوكب، والشمس هي الأظهر، وهي أول ما يُرى؟ واستُدل بأن الله تعالى قال أولاً:{وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض}، ثم حكى هذا القول، فكيف يمكن أن يُتوهم ذلك بعد كشف الملكوت له؟ وهذه دلالات ظنية وليست براهين. أما قوله: (هو أجل من ذلك) فقد قيل: إنه كان صبياً لما جرى له ذلك، ولا يبعد أن يخطر لمن سيكون نبياً في صباه مثل هذا الخاطر، ثم يتجاوزه على قرب، ولا يبعد أن تكون دلالة الأفول على الحدوث عنه أظهر من دلالة التقدير والجسمية. وأما رؤية الكوكب أولاً، فقد روي أنه كان محبوساً في صباه في غار وإنما خرج بالليل. وأما قوله تعالى أولاً:{وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض}، فيجوز أن يكون الله تعالى، قد ذكر حال نهايته، ثم رجع إلى ذكر بدايته. فهذه وأمثالها ظنون يظنها براهين من لا يعرف حقيقة البرهان وشرطه. فهذا جنس تأويلهم، وقد تأولوا (العصا) و(النعلين) في قوله تعالى:{اخلع نعليك}،{وألق ما في يمينك}. ولعل الظن في مثل هذه الأمور التي لا تتعلق بأصول الاعتقاد يجري مجرى البرهان في أصول الاعتقاد، فلا يُكفر فيه ولا يُبدَّع.

نعم إن كان فتح هذا الباب يؤدي إلى تشويش قلوب العوام فيُبدِّع به خاصة صاحبه في كل ما لم يؤثر عن السلف ذكره، ويقرب منه قول الباطنية إن (عجل) السامري مؤول، إذ كيف يخلو خلق كثير من عاقل يعلم أن المتخذ من الذهب لا يكون إلهاً؟ وهذا أيضاً ظن، إذ لا يستحيل أن تنتهي طائفة من الناس إليه كعبدة الأصنام، وكونه نادراً لا يورث يقيناً.

وأما ما يتعلق من هذا الجنس بأصول العقائد المهمة، فيجب تكفير من يغير الظاهر بغير برهان قاطع، كالذي ينكر حشر الأجساد، وينكر العقوبات الحسية في الآخرة بظنون وأوهام واستبعادات من غير برهان قاطع، فيجب تكفيره قطعاً، إذ لا برهان على استحالة رد الأرواح إلى الأجساد، وذكر عظيم الضرر في الدين فيجب تكفير كل ما تعلق به، وهو مذهب أكثر الفلاسفة. وكذلك يجب تكفير من قال منهم: إن الله تعالى لا يعلم إلا نفسه، أو لا يعلم إلا الكليات، فأما الأمور الجزئية المتعلقة بالأشخاص فلا يعلمها، لأن ذلك تكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم قطعاً، وليس من قبيل الدرجات التي ذكرناها في التأويل. إذ أدلة القرآن والأخبار على تفهيم حشر الأجساد، وتفهيم تعلق علم الله تعالى بتفصيل كل ما يجري على الأشخاص، مجاوز حد لا يقبل التأويل وهم معترفون بأن هذا ليس من التأويل. ولكن قالوا: لما كان صلاح الخلق في أن يعتقدوا حشر الأجساد لقصور عقولهم عن فهم المعاد العقلي، وكان صلاحهم في أن يعتقدوا أن الله تعالى عالم بما يجري عليهم ورقيب عليهم ليورث ذلك رغبة ورهبة في قلوبهم، جاز للرسول عليه الصلاة والسلام أن يفهمهم ذلك، وليس بكاذب من أصلح غيره فقال ما

فيه صلاحه وإن لم يكن كما قاله. وهذا القول باطل قطعاً، لأنه تصريح بالكذب، ثم طلب عذر في أنه لم يكذب. ويجب إجلال منصب النبوة عن هذه الرذيلة، ففي الصدق وإصلاح الخلق به مندوحة عن الكذب.

وهذه أول درجات الزندقة، وهي رتبة بين الاعتزال وبين الزندقة المطلقة، فإن المعتزلة يقرب منهاجهم من منهاج الفلاسفة إلا في هذا الأمر الواحد، هو أن المعتزلي لا يُجوِّز الكذب على الرسول عليه السلام بمثل هذا العذر، بل يؤول الظاهر مهما ظهر به بالبرهان خلافه. والفلسفي لا يقتصر في مجاوزته للظاهر على ما يقبل التأويل على قرب أو على بعد.

وأما الزندقة المطلقة فهي أن تنكر أصل المعاد عقلياً وحسياً، وتنكر الصانع للعالم أصلاً ورأساً. وأما إثبات المعاد بنوع عقلي مع نفي الآلام واللذات الحسية، وإثبات الصانع مع نفي علمه بتفاصيل العلوم، فهي زندقة مقيدة بنوع اعتراف بصدق الأنبياء.

الفصل التاسع: التكفير بين الاعتبارات النظرية والشرعية: مفهوم الضرر

اعلم أن شرح ما يُكفَّر به وما لا يكفر به، يستدعي تفصيلاً طويلاً يفتقر إلى ذكر كل المقالات والمذاهب، وذكر شبهة كل واحد ودليل، ووجه بعده عن الظاهر، ووجه تأويله. وذلك لا يحويه مجلدات، ولا تتسع لشرح ذلك أوقاتي. فاقنع الآن بوصية وقانون.

أما **الوصية**: فأن تكف لسانك عن أهل القبلة ما أمكنك، ماداموا قائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله، غير مناقضين لها، والمناقضة تجويزهم الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعذر أو غير عذر، فإن التكفير فيه خطر، والسكوت لا خطر فيه.

أما **القانون**: فهو أن تعلم أن النظريات قسمان: قسم يتعلق بأصول القواعد، وقسم يتعلق بالفروع. **وأصول الإيمان ثلاثة: الإيمان بالله، وبرسوله، وباليوم الآخر، وما عداه فروع**. واعلم أنه لا تكفير في الفروع أصلاً، إلا في مسألة واحدة. وهي أن ينكر أصلاً دينياً عُلم من الرسول صلى الله عليه وسلم بالتواتر. لكن في بعضها تخطئة كما في الفقهيات، وفي بعضها تبديع كالخطأ المتعلق بالإمامة وأحوال الصحابة. واعلم أن الخطأ في الإمامة وتعيينها وشروطها وما يتعلق به، لا يوجب شيئ منه تكفيراً. فقد أنكر ابن كيسان أصل وجوب الإمامة، ولا يلزم تكفيره. ولا يُلتفت إلى قوم يُعظِّمون أمر الإمامة، ويجعلون الإيمان بالإمام مقروناً بالإيمان بالله ورسوله، ولا إلى خصومهم المكفرين لهم بمجرد مذهبهم في الإمامة. فكل ذلك إسراف. إذ ليس في واحد من القولين تكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم أصلاً، ومهما وُجِد التكذيب، وجب التكفير، وإن كان من الفروع. فلو قال قائل مثلاً: البيت الذي بمكة ليس الكعبة التي أمر الله بحجها، فهذا كفر، إذ قد ثبت تواتراً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلافه. ولو أنكر شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم لذلك البيت بأنه الكعبة لم ينفعه إنكاره، بل يُعلم قطعاً أنه معاند في إنكاره، إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام ولم يتواتر عنده ذلك. وكذلك من نسب عائشة رضي الله عنها إلى الفاحشة، وقد نزل القرآن ببراءتها فهو كافر، لأن هذا وأمثاله لا يمكن إلا بتكذيب الرسول أو إنكار

التواتر. والتواتر ينكره الإنسان بلسانه، ولا يمكن أن يجهله بقلبه. نعم لو أنكر ما ثبت بأخبار الآحاد فلا يلزمه به الكفر. ولو أنكر ما ثبت بالإجماع، فهذا فيه نظر، لأن معرفة كون الإجماع حجة قاطعة، فيه غموض يعرفه المحصلون لعلم أصول الفقه. وأنكر النظَّام كون الإجماع حجة أصلاً، فصار كون الإجماع حجة مختلفاً فيه.

فهذا حكم الفروع، وأما **الأصول الثلاثة**، وكل ما لم يحتمل التأويل في نفسه، وتواتر نقله، ولم يُتصور أن يقوم برهان على خلافه، فمخالفته تكذيب محض. ومثاله ما ذكرناه من حشر الأجساد، والجنة والنار، وإحاطة علم الله بتفاصيل الأمور. وما يتطرق إليه احتمال التأويل، ولو بالمجاز البعيد، فننظر فيه إلى البرهان: فإن كان قاطعاً، وجب القول به. ولكن إن كان في إظهاره مع العوام ضرر، لقصور فهمهم، فإظهاره بدعة. وإن لم يكن البرهان قطعياً، لكن يفيد ظناً غالباً، وكان مع ذلك لا يُعلم ضرره في الدين، كنفي المعتزلة الرؤية عن الله تعالى، فهذه بدعة، وليس بكفر. وأما ما يظهر له ضرر، فيقع في محل الاجتهاد والنظر، فيُحتمل أن يُكفر، ويحتمل أن لا يُكفر. ومن جنس ذلك ما يدعيه بعض من **يدعي التصوف** أنه قد بلغ حالة بينه وبين الله تعالى، أسقطت عنه الصلاة، وأحلت له شرب الخمر والمعاصي، وأكل مال السلطان. فهذا ممن لا شك في **وجوب قتله**، وإن كان في الحكم بخلوده في النار نظر. وقتل مثل هذا أفضل من قتل مائة كافر، إذ ضرره في الدين أعظم، وينفتح به باب من الإباحة لا ينسد. وضرر هذا فوق ضرر من يقول بالإباحة مطلقاً، فإنه يمنع عن الإصغاء إليه ظهور كفره، وأما هذا فإنه يهدم الشرع من الشرع، ويزعم أنه لم يرتكب فيه إلا تخصيص عموم، إذ خصص عموم التكليفات بمن ليس له مثل درجته في الدين. وربما يزعم أنه يلابس ويقارف المعاصي بظاهره، وهو بباطنه بريء عنها، ويتداعى هذا إلى أن يدعي كل فاسق مثل حاله، وينحل به عصام الدين.

ولا ينبغي أن يُظن أن التكفير ونفيه ينبغي أن يُدرَك قطعاً في كل مقام. بل التكفير حكم شرعي، يرجع إلى إباحة المال وسفك الدم والحكم بالخلود في النار. فمأخذه كمأخذ سائر الأحكام الشرعية، فتارة يُدرك بيقين، وتارة بظن غالب، وتارة يُتردد فيه، ومهما حصل تردد، فالوقف فيه عن التكفير أولى. **والمبادرة إلى التكفير إنما تغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل**. ولا بد من التنبيه على قاعدة أخرى، وهي أن المخالِف قد يخالف نصاً متواتراً، ويزعم أنه مؤول، ولكن ذِكر تأويله لا انقداح له أصلاً في اللسان، لا على بعد ولا على قرب، فذلك كفر، وصاحبه مُكذِّب، وإن كان يزعم أنه مؤول. مثاله ما رأيت في كلام بعض الباطنية إن الله تعالى واحد، بمعنى أنه يعطي الوحدة ويخلقها، وعالم، بمعنى أنه يعطي العلم لغيره ويخلقه، وموجود، بمعنى أنه يُوجِد غيره. وأما أن يكون واحداً في نفسه وموجوداً وعالماً، على معنى اتصافه، فلا. وهذا كفر صراح، لأن حمل الواحد على إيجاد الوحدة، ليس من التأويل في شيء ولا تحتمله لغة العرب أصلاً. ولو كان خالق الوحدة يسمى خالقاً لخلقِه الوحدة لسمي ثلاثاً، وأربعاً، لأنه خلق الأعداد أيضاً. فأمثلة هذه المقالات، تكذيبات، عُبِّر عنها بالتأويلات.

الفصل العاشر : شروط التواتر والإجماع والبرهان

قد فهمت من هذه التكفيرات أن النظر في التكفير يتعلق بأمور، أحدها: أن النص الشرعي الذي عُدِل به عن ظاهره، هل يحتمل التأويل أم لا؟ فإن احتمل، فهل (تأويله) قريب أم بعيد؟ ومعرفة ما يقبل التأويل وما لا يقبل التأويل، ليس بالهين، بل لا يستقل به إلا الماهر الحاذق في علم اللغة، العارف بأصول اللغة، ثم بعادة العرب في الاستعمال في استعاراتها، وتجوزاتها، ومنهاجها في ضرب الأمثال.

الثاني: في النص المتروك، أنه ثبت تواتراً ؟ أو آحاداً ؟ أو بالإجماع المجرد؟ فإن ثبت تواتراً، فهل على شرط التواتر أم لا؟ إذ ربما يُظَن المستفيض متواتراً. وحد التواتر ما لا يمكن الشك فيه، كالعلم بوجود الأنبياء، ووجود البلاد المشهورة وغيرها، وأنه متواتر في الأعصار كلها، عصراً بعد عصر، إلى زمان النبوة. فهل يُتصور أن يكون قد نقص عدد التواتر في عصر من الأعصار؟ وشرط التواتر أن لا يحتمل ذلك، كما في القرآن. أما في غير القرآن فيَغمُض مُدرَك ذلك جيداً، ولا يستقل بإدراكه إلا الباحثون عن كتب التواريخ، وأحوال القرون الماضية، وكتب الأحاديث، وأحوال الرجال وأغراضهم في نقل المقالات. إذ قد يوجد عدد التواتر في كل عصر ولا يُحصل به العلم، إذ كان يتصور أن يكون للجمع الكثير رابطة في التوافق، لاسيما بعد وقوع التعصب بين أرباب المذاهب. ولذلك ترى الروافض يدّعون النصَّ على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في الإمامة لتواتره عندهم، وتواتَرَ عند خصومهم في أشياء كثيرةٍ خِلافُ ما تواترَ عندهم، لشدّةِ توافُق الروافض على إقامة أكاذيبهم واتّباعها.

وأما ما يستند إلى الإجماع فدرك ذلك من أغمض الأشياء، إذ شرطه أن يجتمع أهل الحل والعقد في صعيد واحد، فيتفقوا على أمر واحد اتفاقاً بلفظ صريح، ثم يستمروا عليه، مرة عند قوم، وإلى تمام انقراض العصر عند قوم. أو يكاتبهم إمام في أقطار الأرض فيأخذ فتاويهم في زمان واحد، بحيث تتفق أقوالهم اتفاقاً صريحاً، حتى يُمتنع الرجوع عنه والخلاف بعده. ثم النظر في أن من خالف بعده هل يُكفر؟ لأن من الناس من قال: إذا جاز في ذلك الوقت أن يختلفوا، فيُحمل توافقهم على اتفاق، ولا يُمتنع على واحد منهم أن رجع بعد ذلك وهذا غامض أيضاً.

الثالث: النظر في أن صاحب المقال هل تواتر عنده الخبر؟ أو هل بلغه الإجماع؟ إذ كل من يولد لا تكون الأمور عنده متواترة، ولا مواضع الإجماع عنده متميزة عن مواضع الخلاف. وإنما يُدرِك ذلك شيئاً فشيئاً. وإنما يُعرف ذلك من مطالعة الكتب المصنفة في الاختلاف والإجماع للسلف، ثم لا يحصل العلم في ذلك بمطالعة تصنيف، ولا تصنيفين، إذ لا يحصل تواتر الإجماع به. وقد صنف أبو بكر الفارسي، رحمه الله، كتاباً في مسائل الإجماع، وأُنكر عليه كثير منه، وخولف في بعض تلك المسائل. فإذن من خالف الإجماع، ولم يثبت عنده بعد فهو جاهل مخطئ، وليس بمكذب، فلا يمكن تكفيره. والاستقلال بمعرفة التحقيق في هذا ليس بيسير.

الرابع: النظر في دليله الباعث على مخالفة الظاهر: أهو على شرط البرهان أم لا؟ ومعرفة شروط البرهان لا يمكن شرحها إلا في مجلدات، وما ذكرنا في كتاب "القسطاس المستقيم" وكتاب "محك النظر" أنموذج منه. وتكل

قريحة فقهاء الزمان عن قصر شرط البرهان على الاستيفاء، ولابد من معرفة ذلك، فإن البرهان إذا كان قاطعاً، رُخص في التأويل وإذا كان بعيداً. فإذا لم يكن قاطعاً لم يرخص إلا في تأويل قريب سابق إلى الفهم.

الخامس: في أن ذكر تلك المقالة، هل يَعظُم ضررها في الدين أم لا؟ فإن ما لا يعظم ضرره في الدين فالأمر فيه أسهل، وإن كان القول شنيعاً وظاهر البطلان كقول الإمامية المنتظرة إن الإمام مختف في سرداب، وإنه ينتظر خروجه، فإنه قول كاذب، ظاهر البطلان، شنيع جداً، ولكن لا ضرر فيه على الدين، إنما الضرر على الأحمق المعتقد لذلك، إذ يخرج كل يوم من بلده لاستقبال الإمام حتى يدخل الليل، فيرجع إلى بيته خاسئاً. وهذا مثال، والمقصود أنه لا ينبغي أن يُكفَّر بكل هذيان وإن كان ظاهر البطلان.

فإذا فهمت أن النظر في التكفير موقوف على جميع هذه المقامات التي لا يستقل بآحادها المبرزون، علمت أن المبادر إلى تكفير من يخالف الأشعري أو غيره، جاهل مجازف. وكيف يستقل الفقيه بمجرد الفقه بهذا الخطب العظيم؟ وفي أي ربع من أرباع الفقه يصادف هذه العلوم؟ فإذا رأيت الفقيه الذي بضاعته مجرد الفقه، يخوض في التكفير والتضليل، فأعرض عنه، ولا تشغل به قلبك ولسانك، فإن التحدي بالعلوم غريزة في الطبع، لا يصبر عنه الجهال، ولأجله كثر الخلاف بين الناس، ولو ينكث من الأيدي من لا يدري، لقلّ الخلاف بين الخلق.

الفصل الحادي عشر : نقد الكلام وتمجيد النور الإلهي

من أشد الناس غلواً وإسرافاً، طائفة من المتكلمين كفَّروا عوام المسلمين، وزعموا أن "من لا يعرف الكلام معرفتنا، ولم يعرف الأدلة الشرعية بأدلتنا التي حررناها، فهو كافر". فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده، أولاً، وجعلوا الجنة وقفاً على شرذمة يسيرة من المتكلمين. ثم جهلوا ما تواتر من السنة، ثانياً. إذ ظهر لهم في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعصر الصحابة رضي الله عنهم، حكمهم بإسلام طوائف من أجلاف العرب، كانوا مشغولين (قبل إسلامهم) بعبادة الوثن، ولم يشتغلوا بعلم الدليل، ولو اشتغلوا به لم يفهموه. ومن ظن أن مُدرَك الإيمان (هو) الكلام والأدلة المجردة والتقسيمات المترتبة، فقد ابتدع، بل **الإيمان نور يقذفه الله في قلوب عبيده، عطية وهدية من عنده، تارة ببينة من الباطن لا يمكنه التعبير عنها، وتارة بسبب رؤيا في المنام، وتارة بمشاهدة حال رجل متدين وسراية نوره إليه عند صحبته ومجالسته، وتارة بقرينة حال**، فقد جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم جاحداً به منكراً، فلما وقع بصره على طلعته البهية، زاده الله شرفاً وكرامة، فرآها تتلألأ منها أنوار النبوة قال: والله ما هذا بوجه كذاب، وسأله أن يعرض عليه الإسلام، فأسلم. وهذا وأمثاله أكثر من أن تحصى، ولم يشتغل واحد منهم بالكلام وتعلم الأدلة، بل **كان يبدو نور الإيمان بمثل هذه القرائن في قلوبهم، لمعة بيضاء، ثم لا تزال تزداد إشراقاً بمشاهدة تلك الأحوال العظيمة وتلاوة القرآن وتصفية القلوب**.

والحق الصريح أن كل من اعتقد ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام واشتمل عليه القرآن، اعتقاداً جزماً، فهو مؤمن وإن لم يعرف أدلته. بل الإيمان المستفاد من الدليل الكلامي ضعيف جداً مُشرِف على الزوال بكل شبهة. بل الإيمان الراسخ إيمان العوام الحاصل في قلوبهم في الصبا بتواتر السماع، أو الحاصل بعد البلوغ

بقرائن أحوال لا يمكن التعبير عنها. وتمام تأكده يلزمه العبادة والذكر، فإن من تمادت به العبادة إلى حقيقة التقوى وتطهير الباطن عن كدورات الدنيا، وملازمة ذكر الله تعالى دائماً، تجلت له أنوار المعرفة، وصارت الأمور التي كان قد أخذها تقليداً عنه، كالمعاينة والمشاهدة وذلك، حقيقة المعرفة التي لا تُحصَّل إلا بعد انحلال عقدة اعتقادات، وانشراح الصدر بنور الله تعالى. {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام}،{فهو على نور من ربه}. كما سئل صلى الله عليه وسلم عن معنى شرح الصدر، فقال: "نور يقذفه في قلب المؤمن"، فقيل ما علامته؟ قال: "التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود". فبهذا يُعلم المتكلم المقبل على الدنيا المتهالك عليها، غير مدرك حقيقة المعرفة، ولو أدركها لتجافى عن دار الغرور قطعاً.

كتاب النية والإخلاص والصدق

وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة. فالناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم. **فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء**، وهو للنفاق كفاء، ومع العصيان سواء. **والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء**، وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوبا مغمورا: {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا}. وليت شعرى كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية، أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص، أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه. فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولا لتحصل المعرفة، ثم يصححها بالعمل، بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والخلاص.

الباب الأول في حقيقة النية ومعناها، وفيه: بيان فضيلة النية

وبيان حقيقة النية وبيان كون النية خيرا من العمل وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس وبيان خروج النية عن الاختيار.

بيان فضيلة النية: قال الله تعالى:{ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه}، والمراد بتلك الإرادة هي النية. وقال صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه"، وقال صلى الله عليه وسلم "أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته". وقال تعالى:{إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما}، فجعل النية سبب التوفيق. وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم

وأعمالكم"، وإنما نظر إلى القلوب لأنها مظنة النية. وقال صلى الله عليه وسلم: "الناس أربعة رجل أتاه الله عَز وجَل علما ومالا فهو يعمل بعلمه في ماله، فيقول رجل لو آتاني الله تعالى مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الأجر سواء، ورجل آتاه الله تعالى مالا ولم يؤته علما فهو يتخبط بجهله في ماله فيقول رجل لو آتاني الله مثل ما آتاه عملت كما يعمل فهما في الوزر سواء"، ألا ترى كيف شركه بالنية في محاسن عمله ومساويه. وكذلك في حديث أنس بن مالك لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك قال: "إن بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا ولا وطئنا موطئا يغيظ الكفار، ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا مخمصة إلا شركونا في ذلك وهم بالمدينة"، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا؟ قال: "حبسهم العذر فشركوا بحسن النية". وفي حديث ابن مسعود: (من هاجر يبتغي شيئا فهو له) فهاجر رجل فتزوج امرأة منا فكان يسمى مهاجر أم قيس. وفي حديث عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "من غزا وهو لا ينوي إلا عقالا فله ما نوى". وروي في الإسرائيليات أن رجلا مر بكثبان من رمل في مجاعة فقال في نفسه لو كان هذا الرمل طعاما لقسمته بين الناس، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له إن الله تعالى قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاما فتصدقت به. وقد ورد في أخبار كثيرة من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة. وفي حديث عبد الله بن عمرو: "من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه وفارقها أرغب ما يكون فيها، ومن تكن الآخرة نيته جعل الله تعالى غناه في قلبه وجمع عليه ضيعته وفارقها أزهد ما يكون فيها". وفي حديث أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر جيشا يُخسف بهم البيداء فقلت: يا رسول الله يكون فيهم المُكره والأجير، فقال: "يحشرون على نياتهم". وقال عمر رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنما يقتتل المقتتلون على النيات".

وقال عليه السلام: "إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا، فلان يقاتل حمية، فلان يقاتل عصبية، ألا فلا تقولوا فلان قتل في سبيل الله، فمن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله"، وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "**يُبعث كل عبد على ما مات عليه**"، وفي حديث الأحنف عن أبي بكرة: "إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار. قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: لأنه أراد قتل صاحبه"، وفي حديث أبي هريرة: "من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان، ومن إدان دينا وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق"

وأما الآثار فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "**أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى، والورع عما حرم الله تعالى، وصدق النية فيما عند الله تعالى**". وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز: "اعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية، فمن تمت نيته تم عون الله له، وإن نقصت نقص بقدره". وقال بعض السلف: "رب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية". وقال داود الطائي: "البَر همته التقوى، فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوما إلى نية صالحة، وكذلك الجاهل بعكس ذلك". وقال الثوري: كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل. وقال بعض العلماء: **أطلب النية للعمل قبل العمل، وما دمت تنوي الخير فأنت بخير**. وكذلك قال بعض السلف: "وإن نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها، وإن ذنوبكم أخفى من أن تعلموها، ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين يغفر لكم ما بين ذلك". وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ {ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم}، يبكي ويرددها ويقول: **إنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا**.

بيان حقيقة النية

اعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات على متوارده معنى واحد، وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران، علم وعمل. العلم يقدمه لأنه أصله وشرطه، والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه، وذلك لأن كل عمل، أعنى كل حركة وسكون، اختيارى فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور: علم وإرادة وقدرة، لأنه لا يريد الإنسان مالا يعلمه، فلابد وأن يعلم، ولا يعمل ما لم يرد فلا بد من إرادة، ومعنى الإرادة إنبعاث القلب إلى ما يراه موافقا للغرض، إما في الحال أو فى المآل، فقد خُلِق الإنسان بحيث يوافقه بعض الأمور ويلائم غرضه، ويخالفه بعض الأمور فيحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه ودفع الضار المنافى عن نفسه، فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشيء المضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا.

بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم نية المؤمن خير من عمله

اعلم أنه قد يُظن أن سبب هذا الترجيح أن النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى والعمل ظاهر، ولعمل السر فضل. وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد، لأنه لو نوى أن يذكر الله بقلبه أو يتفكر في مصالح المسلمين فيقتضي عموم الحديث أن تكون نية التفكر خيرا من التفكر، وقد يُظن أن سبب الترجيح أن النية تدوم إلى آخر العمل، والأعمال لا تدوم، وهو ضعيف لأن ذلك يرجع معناه إلى أن العمل الكثير خير من القليل، بل ليس كذلك. فإن نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا في لحظات معدودة، والأعمال تدوم، والعموم يقتضى أن تكون نيته خيرا من عمله. وقد يقال أن معناه أن النية بمجردها خير من العمل بمجرده دون النية، وهو كذلك، ولكنه بعيد أن يكون هو المراد، إذ العمل بلا نية أو على الغفلة لا خير فيه أصلا، والنية بمجردها خير، وظاهر الترجيح للمشتركين في أصل الخير، بل المعنى أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات. ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل، أى لكل واحد منهما أثر في المقصود، وأثر النية أكثر من أثر العمل، فمعناه نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذى هو من جملة طاعته. والغرض أن للعبد اختيارا في النية وفى العمل، فهما عملان والنية من الجملة خيرهما. فهذا معناه وأما سبب كونها خيرا ومترجحة على العمل فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه، ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلى المقصد، وقاس بعض الآثار بالبعض، حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود. فالطاعات غذاء للقلوب، والمقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة وسعادتها وتنعمها بلقاء الله تعالى، فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله فقط، ولن يتنعم بلقاء الله إلا من مات محبا لله تعالى عارفا بالله، ولن يحبه إلا من عرفه، ولن يأنس بربه إلا من طال ذكره له، فالأنس يحصل بدوام الذكر، والمعرفة تحصل بدوام الفكر، والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة. ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا، ولن يتفرغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها حتى يصير مائلا إلى الخير مريدا له نافرا عن الشر مبغضا له، وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أن سعادته في الآخرة منوطة بها. وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة فإنما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه، فإن المواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى تترشح الصفة وتقوى بسببها، فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرياسة لا يكون ميله في الابتداء إلا ضعيفا، فإن اتبع بمقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والأعمال المطلوبة لذلك تأكد ميله ورسخ وعسر عليه النزوع، وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر وربما زال. وهكذا جميع الصفات والخيرات والطاعات كلها هى التى تراد بها الآخرة، والشرور كلها هى التى تراد بها

الدنيا لا الآخرة، وميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذى يفرغها للذكر والفكر، ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصى بالجوارح، لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى أنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر، فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت عزيز من أعزته أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء وارتعدت الفرائض وتغير اللون، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد"، فمن هذا الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح، ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل، لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له. فهكذا ينبغى أن تفهم تأثير الطاعات كلها، إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح، فلا تظنن أن فى وضع الجبهة على الأرض غرضا من حيث أنه جمع بين الجبهة والأرض، بل من حيث أنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب، فإن من يجد في نفسه تواضعا فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه، ومن وجد في قلبه رقة على يتيم فإذا مسح رأسه وقبله تأكد الرقة في قلبه. **ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيدا أصلا**، لأن من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظان أنه يمسح ثوبا لم ينتشر من أعضائه أثر الى قلبه لتأكيد الرقة، وكذلك من يسجد غافلا وهو مشغول الهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع، فكان وجود ذلك كعدمه، وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلا، فيقال **العبادة بغير نية باطلة، وهذا معناه إذا فُعل عن غفلة**، فإذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كعدمه بل زاده شرا، فإنه لم يؤكد الصفة المطلوبة تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب قمعها وهي صفة الرياء التي هي من الميل إلى الدنيا. فهذا وجه كون النية خير من العمل، وبهذا أيضا يُعرف معنى قوله صلى الله عليه وسلم: "من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة"، لأن هم القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهى غاية الحسنات، وإنما الإتمام بالعمل يزيدها تأكيدا. فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم، بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذلها إيثارا لوجه الله تعالى. وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وإن عاق عن العمل عائق فـ:{لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم}، والتقوى ههنا صفة القلب، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "إن قوما بالمدينة قد شركونا في جهادنا" كما تقدم ذكره، لأن قلوبهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الخارجين فى الجهاد، وإنما فارقوهم بالأبدان لعوائق تخص الأسباب الخارجة عن القلب، وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات. وبهذه المعاني تفهم جميع الأحاديث التى أوردناها في فضيلة النية فاعرضها عليها لينكشف لك أسرارها فلا نطول بالإعادة .

بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية

اعلم أن الأعمال وإن إنقسمت أقساما كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك مما لا يُتصور إحصاؤه واستقصاؤه، فهي ثلاثة أقسام معاص وطاعات ومباحات. القسم الأول المعاصي وهي لا تتغير عن موضعها بالنية، فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام إنما الأعمال بالنيات، فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية، كالذي يغتاب إنسانا مراعاة لقلب غيره، أو يطعم فقيرا من مال غيره، أو يبني مدرسة أو مسجدا أو رباطا بمال حرام، وقصده الخير، فهذا كله جهل، والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية، بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر، فإن عرفه فهو معاند للشرع وإن جهله فهو عاص بجهله، إذ طلب العلم فريضة على كل

مسلم، والخيرات إنما يعرف كونها خيرات للشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خير؟ هيهات، بل المروج لذلك على القلب خفى الشهوة وباطن الهوى، فإن القلب إذا كان مائلا إلى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به إلى التلبيس على الجاهل، ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى: "ما عُصي الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل". قيل يا أبا محمد هل تعرف شيئا أشد من الجهل، قال نعم: "الجهل بالجهل"، وهو كما قال لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم. فمن يظن بالكلية بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم. وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم، ورأس العلم، العلم بالعلم، كما أن رأس الجهل، الجهل بالجهل. فإن من لا يعلم العلم النافع من العلم الضار، اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التى هى وسائلهم إلى الدنيا، وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم. والمقصود أن من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ولم يجد بعد مهلة للتعلم، وقد قال الله سبحانه:{فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون}، ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام، تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار المشغولين بالفسق والفجور القاصرين هممهم على مماراة العلماء ومباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين واليتامى والمساكين، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى، وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائبا عن الدجال يتكالب على الدنيا ويتبع الهوى ويتباعد عن التقوى ويستجرى الناس بسبب مشاهدته على معاصى الله تعالى، ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ويتخذونه أيضا آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى ويتسلسل ذلك، ووبال جميعه يرجع إلى المعلم الذى علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده، فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة مثلا وألفى سنة. وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، ثم العجب من جهله حيث يقول إنما الأعمال بالنيات، وقد قصدت بذلك نشر علم الدين، فإن استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا مني، وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير. فإذن قوله عليه السلام إنما الأعمال بالنيات يختص من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصي، إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد، والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد، فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلا، نعم للنية دخل فيها وهو أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة.

القسم الثاني: الطاعات

وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها. أما الأصل فهو أن ينوى بها عبادة الله تعالى لا غير، فإن نوى الرياء صارت معصية. وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن يُنوى بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب، إذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها كما ورد به الخبر، ومثاله القعود فى المسجد فإنه طاعة، ويمكن أن ينوى فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ويبلغ به درجات المقربين: أولها أن يعتقد أنه بيت الله وأن داخله زائر الله فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: "من قعد فى المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور أن يكرم زائره". وثانيها أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون في جملة إنتظاره في الصلاة وهو معنى قوله تعالى ورابطوا. وثالثها الترهب بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات، فإن الاعتكاف كف وهو في معنى الصوم، وهو نوع ترهب. ورابعها عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر في الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد. وخامسها التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره وللتذكر به كما روي في الخبر من

غدا إلى المسجد ليذكر الله تعالى أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى. وسادسها أن يقصد إفادة العلم بأمر بمعروف ونهي عن منكر، إذ المسجد لا يخلو عمن يسيئ في صلاته أو يتعاطى مالا يحل له فيأمره بالمعروف ويرشده إلى الدين، فيكون شريكا معه في خيره الذي يعلم منه فتتضاعف خيراته. وسابعها أن يستفيد أخا في الله، فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفي الله. وثامنها أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى، وحياء من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضي هتك الحرمة. وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: "من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال: أخا مستفادا في الله، أو رحمة مستنزلة، أو علما مستطرفا، أو كلمة تدل على هدى، أو تصرفه عن ردى، أو يترك الذنوب خشية أو حياء". فهذا طريق تكثير النيات، وقس به سائر الطاعات والمباحات. إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة، وإنما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جده في طلب الخير وتشمره له وتفكره فيه. فبهذا تزكوا الأعمال وتتضاعف الحسنات.

القسم الثالث المباحات

وما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات ويُنال بها معالي الدرجات، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة عن سهو وغفلة. ولا ينبغي أن يستحقر العبد شيئا من الخطرات والخطوات واللحظات، فكل ذلك يُسئل عنه يوم القيامة أنه لم فعله، وما الذي قصد به. هذا في مباح محض لا يشوبه كراهة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "حلالها حساب وحرامها عقاب"، وفي خبر آخر من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغير الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة، فاستعمال الطِيب مباح ولكن لا بد فيه من نية. فإن قلت فما الذي يمكن أن يُنوي بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس، وكيف يتطيب لله؟ فاعلم أن من يتطيب مثلا يوم الجمعة وفي سائر الأوقات يتصور أن يقصد التنعم بلذات الدنيا، أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران، أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه فى قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة، أو ليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبيات إذا كان مستحلا للنظر إليهن، ولأمور أخرى لا تحصى وكل هذا يجعل التطيب معصية، فبذلك يكون أنتن من الجيفة في القيامة إلا القصد الأول، وهو التلذذ والتنعم فإن ذلك ليس بمعصية إلا أنه يسئل عنه، "ومن نوقش الحساب عُذب"، ومن أتى شيئا من مباح الدنيا لم يعذب عليه في الآخرة ولكن يُنقص من نعيم الآخرة له بقدره، وناهيك خسرانا بأن يستعجل ما يفنى ويخسر زيادة نعيم لا يفنى. وأما النية الحسنة فإنه ينوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة، وينوي بذلك أيضا تعظيم المسجد واحترام بيت الله، فلا يُرى أن يدخله زائرا لله إلا طيب الرائحة، وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا فى المسجد عند مجاورته بروائحه، وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التى تؤدي إلى إيذاء مخالطيه، وأن يقصد حسم باب الغيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيعصون الله بسببه، فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية، وقال الله تعالى:{ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم}، أشار به إلى أن التسبب إلى الشر شر، وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر، فقد قال الشافعي رحمه الله: من طاب ريحه زاد عقله. فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبة على قلبه، وإذا لم يغلب على قلبه إلا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات، وإن ذُكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها إلا حديث النفس، وليس ذلك من النية في شيء. والمباحات كثيرة ولا يمكن

إحصاء النيات فيها فَقِس بهذا الواحد ما عداه. ولهذا قال بعض العارفين من السلف إني أستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى فى أكلي وشربي ونومي ودخولي إلى الخلاء، وكل ذلك مما يمكن أن يُقصد به التقرب إلى الله تعالى، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين، فمن قصده من الأكل التقوي على العبادة، ومن الوقاع تحصين دينه وتطييب قلب أهله والتوصل به إلى نسل صالح يعبد الله تعالى بعده فتكثر به أمة محمد صلى الله عليه وسلم، كان مطيعا بأكله ونكاحه، وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه هم الآخرة. ولذلك ينبغي أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول هو في سبيل الله، وإذا بلغه اغتياب غيره له فليطيب قلبه بأنه سيحمل سيآته وستنقل إلى ديوانه حسناته، ولينوي ذلك بسكوته عن الجواب. ففي الخبر أن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار، ثم ينشر له من الأعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة، فيتعجب ويقول يا رب هذه أعمال ما عملتها قط، فيقال هذه أعمال الذين اغتابوك وآذوك وظلموك. وفي الخبر أن العبد ليوافي القيامة بحسنات أمثال الجبال لو خلصت له لدخل الجنة، فيأتي وقد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا، فيقتص لهذا من حسناته ولهذا من حسناته حتى لا يبقي له حسنة، فتقول الملائكة قد فنيت حسناته وبقي طالبون، فيقول الله تعالى ألقوا عليه من سيآتهم ثم صكوا له صكا إلى النار. وبالجملة فإياك ثم إياك أن تستحقر شيئا من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشرورها، ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب فإن الله تعالى مطلع عليك وشهيد {ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد}. وقال بعض السلف كتبت كتابا وأردت أن أتربه من حائط جار لى فتحرجت ثم قلت تراب وما تراب، فتربته فهتف بي هاتف سيعلم من استخف بتراب جاره ما يلقى غدا من سوء الحساب. وقد قال الحسن: إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول بيني وبينك الله، فيقول والله ما أعرفك، فيقول بلى أنت أخذت لبنة من حائطى وأخذت خيطا من ثوبي. فهذا وأمثاله من الأخبار **قطَّع قلوب الخائفين**، فإن كنت من أولى العزم والنهى ولم تكن من المغترين فانظر لنفسك الآن، ودقق الحساب على نفسك قبل أن يُدقق عليك، وراقب أحوالك ولا تسكن ولا تتحرك ما لم تتأمل أولا أنك لم تتحرك وماذا تقصد وما الذى تنال به من الدنيا وما الذى يفوتك من الآخرة، وبماذا ترجح الدنيا على الآخرة، فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدين فامض عزمك وما خطر ببالك، وإلا فأمسك، ثم راقب أيضا قلبك في إمساكك وإمتناعك، فإن ترْك الفعل فعل ولا بد له من نيه صحيحه، فلا ينبغي أن يكون الداعي هوى خفي لا يُطلع عليه، ولا يغرنك ظواهر الأمور ومشهورات الخيرات، وافطن للأغوار والأسرار تخرج من حيز أهل الإغترار. فهكذا ينبغى أن يتفقد العبد نيته في سائر الأعمال، فلا يقدم ولا يحجم إلا بنية فإن لم تحضره النية توقف فإن النية لا تدخل تحت الاختيار.

بيان أن النية غير داخلة تحت الاختيار

اعلم أن الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات" فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله نويت أن أدرس لله أو آكل لله، ويظن ذلك نية وهيهات، فذلك حديث نفس وحديث لسان وفكر أو انتقال من خاطر إلى خاطر، والنية بمعزل من جميع ذلك. وإنما النية إنبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها، إما عاجلا وإما آجلا. والميل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة، بل ذلك كقول الشبعان نويت أن أشتهى الطعام وأميل إليه، أو قول الفارغ نويت أن أعشق فلانا وأحبه وأعظمه بقلبى، فذلك محال. بل لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجهه نحوه إلا باكتساب أسبابه، وذلك مما قد يُقدر

عليه وقد لايُقدر عليه. وإنما تنبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها، وما لم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده، وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين، وإذا اعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه، وذلك لا يمكن في كل وقت. والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع، ويختلف ذلك بالأشخاص وبالأحوال وبالأعمال.

ونيات الناس في الطاعات أقسام، إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف فإنه يتقي النار، ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة، وهذا وإن كان نازلا بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواه فهو من جملة النيات الصحيحة، لأنه ميل إلى الموعود في الآخرة، وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا، وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرهما الجنة، فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه، كالأجير السوء ودرجته درجة البله وإنه لينالها بعمله إذ أكثر أهل الجنة البله، وأما عبادة ذوي الألباب فإنها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه لجماله لما له وجلاله. وسائر الأعمال تكون مؤكدات وروادف، وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعوم في الجنة، فإنهم لم يقصدوها بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فقط، وثواب الناس بقدر نياتهم، فلا جرم يتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم ويسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين، كما يسخر المتنعم بالنظر إلى الحور العين ممن يتنعم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين بل أشد، فإن التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشد وأعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين. والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات، ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول إلى غيرها. ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالا وأفعالا لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء، فإنا نقول من حضرت له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة فالمباح أولى، وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة في حقه نقيصة، لأن الأعمال بالنيات، وذلك مثل العفو فإنه أفضل من الانتصار في الظلم، وربما تحضره نية في الانتصار دون العفو فيكون ذلك أفضل. ومثل أن يكون له نية في الأكل والشرب والنوم ليريح نفسه ويتقوى على العبادات في المستقبل وليس تنبعث نيته في الحالين للصوم والصلاة فالأكل والشرب والنوم هو الأفضل له، بل لو مل العبادة لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم أنه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه فاللهو أفضل له من الصلاة. قال أبو الدرداء: إني لأستجم نفسي بشيء من اللهو فيكون ذلك عونا لي على الحق. وقال علي كرم الله وجهه: روحوا القلوب فإنها إذا أُكرهت عميت.

الباب الثاني فى الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

فضيلة الإخلاص: قال الله تعالى:{وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين}، وقال:{ألا لله الدين الخالص}، وقال تعالى:{إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله}، وقال تعالى:{فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا}، نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله". وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال: ظن أبي أن له فضلا على من هو دونه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما نصر الله عز وجل هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم". وقال على بن أبي طالب كرم الله وجهه: "لاتهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل أخلص العمل يجزك منه القليل". وقال عليه الصلاة والسلام: "أول من يسئل يوم

القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى ما صنعت فيما علمت فيقول يارب كنت أقوم آناء الليل وأطراف النهار، فيقول الله تعالى كذبت، وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ألا فقد قيل ذلك، ورجل آتاه الله مالا فيقول الله تعالى لقد أنعمت عليك فماذا صنعت، فيقول يارب كنت أتصدق به آناء الليل وأطراف النهار، فيقول الله تعالى كذبت، وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ألا فقد قيل ذلك، ورجل قتل في سبيل الله تعالى فيقول الله تعالى ماذا صنعت، فيقول يارب أمرت بالجهاد فقاتلت حتى قُتلت، فيقول الله كذبت، وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ألا فقد قيل ذلك"، فدخل راوى هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تزهق ثم قال صدق الله إذ قال: {من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها} ،الآية.

بيان حقيقة الإخلاص

اعلم أن كل شيء يُتصور أن يشوبه غيره فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمى خالصا، ويسمى الفعل المصفى المخلص إخلاصا، قال الله تعالى: {من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين}، فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به. والإخلاص يضاده الإشراك، فمن ليس مخلصا فهو مشرك، إلا أن الشرك درجات. فالإخلاص في التوحيد يضاده التشريك في الإلهية، والشرك منه خفي ومنه جلي، وكذا الإخلاص. والإخلاص وضده يتواردان على القلب، فمحله القلب، وإنما يكون ذلك في القصود والنيات. وقد ذكر حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة البواعث فمهما كان الباعث واحد على التجرد سمي الفعل الصادر عنه إخلاصا بالإضافة إلى المنوى. فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب. كما أن الإلحاد عبارة عن الميل ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق. ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض للهلاك. وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر، إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس، ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب، أو يعتق عبدا ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر أو يتخلص من شر يعرض له في بلده أو ليهرب عن عدو له في منزله، فمهما كان باعثه هو التقرب إلى الله تعالى ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور **فقد خرج عمله عن حد الإخلاص**، وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى، وتطرق إليه الشرك. وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب قل أم كثر إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه، والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس، فلذلك قيل **من سلم له من عمره لحظة واحده خالصه لوجه الله نجا**، وذلك لعزة الإخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب. بل **الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى**. وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يخفي شدة الأمر على صاحبه فيها، وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلي هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور ثم هذه الشوائب، إما أن تكون في رتبة الموافقة أو في رتبة المشاركة أو في رتبة المعاونة كما سبق في النية. وبالجملة فإما أن يكون الباعث النفسى مثل الباعث الدينى أو أقوى منه أو أضعف ولكل واحد حكم آخر كما سنذكره.

وإنما الإخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها قليلها وكثيرها حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون في باعث سواه، وهذا لا يُتصور إلا من محب لله مستغرق الهم بالآخرة، بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار. وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصا، فالذى يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة، وبالجملة غير الله، فقد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرا. فإذن علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب، فإذا ذاك يتيسر الإخلاص. وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرور لأنه لا يرى وجه الآفة فيها. وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى، والغافلون يرون حسناتهم كلها في الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى:{وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيئات ما كسبوا}، وبقوله تعالى:{قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا}. وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة العلماء، فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذى شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره، ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لإنصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك، إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب، واغتمامك لفوات الثواب محمود. ولا يدرى المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابا وأعوذ عليه في الآخرة من إنفراده. فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد الفذ، وهو المستثنى في قوله تعالى:{إلا عبادك منهم المخلصين}. فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر.

بيان أقاويل الشيوخ في الإخلاص

قال السوسى: "الإخلاص فقد رؤية الإخلاص، فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص". وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل، فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب، وهو من جملة الآفات والخالص ما صفا عن جميع الآفات فهذا تعرض لآفة واحد. وقال سهل رحمه الله تعالى: "الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة"، وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض، وفي معناه قول إبراهيم بن أدهم: "الإخلاص صدق النية مع الله تعالى". وقيل لسهل أى شيء أشد على النفس فقال الإخلاص، إذ ليس لها فيه نصيب، وقال رويم: "الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا في الدارين"، وهذا إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا.

والعابد لأجل التنعم بالشهوات في الجنة معلول، بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى، وهو إشارة إلى إخلاص الصديقين، وهو الإخلاص المطلق. فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة، وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج، وإنما المطلوب الحق لذوى الألباب وجه الله تعالى فقط. **وقد قيل الإخلاص ما استتر عن الخلق وصفا عن العلائق، وهذا أجمع للمقاصد**. وقال المحاسبي الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب وهذا إشارة إلى مجرد نفى الرياء. وقال الحواريون لعيسى عليه السلام: ما الخالص من الأعمال؟ فقال: "**الذى يعمل لله تعالى لا يحب أن يحمده عليه أحد**"، وهذا أيضا تعرض لترك الرياء وإنما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوشة للإخلاص.

وقيل الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها وهذا هو البيان الكامل. وإنما البيان الشافى بيان سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم إذ سئل عن الإخلاص فقال: "**أن تقول ربى الله ثم تستقيم كما أُمرت**" أى لا تعبد هواك ونفسك، ولا تعبد إلا ربك وتستقيم في عبادته كما أمرت، وهذا إشارة إلى قطع ما سوى الله عن مجرى النظر وهو الإخلاص حقا.

بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص

اعلم أن الآفات المشوشة للإخلاص بعضها جلى وبعضها خفى، وبعضها ضعيف مع الجلاء، وبعضها قوى مع الخفاء، ولا يُفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلا بمثال. وأظهر مشوشات الإخلاص الرياء فلنذكر منه مثالا، فنقول الشيطان يُدخل الآفة على المصلى مهما كان مخلصا في صلاته، ثم نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل، فيقول له حسن صلاتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك، فتخشع جوارحه وتسكن أطرافه وتحسن صلاته. وهذا هو الرياء الظاهر ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين

الدرجة الثانية: يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت إليه ويستمر في صلاته كما كان، فيأتيه في معرض الخير ويقول أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور إليك وما تفعله يُؤثر عنك ويتأسى بك غيرك فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت وعليك الوزر إن أسأت، فأحسن عملك بين يديه فعساه يقتدى بك في الخشوع وتحسين العبادة، وهذا أغمض من الأول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول، وهو أيضا عين الرياء ومبطل للإخلاص، فإنه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه، فلم لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة، ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه. فهذا محض التلبيس بل المقتدى به هو الذى استقام في نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه، فأما هذا فمحض النفاق والتلبيس، فمن اقتدى به أثيب عليه وأما هو فيطالب بتلبيسه ويعاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفا به.

الدرجة الثالثه: وهى أدق مما قبلها أن يجرب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء، ويعلم أن الإخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملأ، ويستحي من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعا زائدا على عادته، فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذى يرتضيه في الملأ، ويصلى في الملأ أيضا كذلك، فهذا أيضا من الرياء الغامض لأنه حسن صلاته في الخلوة لتحسن في الملأ فلا يكون قد فرق بينهما، فالتفاته في الخلوة والملأ إلى الخلق. بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة، فكان نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس، ثم يستحيي من نفسه أن يكون في صورة المرائين، ويظن أن ذلك يزول بأن تستوى صلاته في الخلا والملأ، وهيهات. بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلا والملأ جميعا.

الدرجة الرابعة: وهى أدق وأخفى، أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له اخشع لأجلهم فإنه قد عرف أنه قد تفطن لذلك، فيقول له الشيطان تفكر في عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه واستحى من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه، فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه ويظن أن ذلك عين الإخلاص وهو عين المكر والخداع، فإن خشوعه لو كان لنظره إلى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة ولكان لا يختص حضورها بحالة حضور غيره. ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته، وإلا

فالشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله تعالى لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات، حتى في كحل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب، فإن هذه سنن في أوقات مخصوصه وللنفس فيها حظ خفي لإرتباط نظر الخلق بها ولاستئناس الطبع بها، فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك، ويقول هذه سنة لا ينبغي أن تتركها ويكون إنبعاث القلب باطنا لها لأجل تلك الشهوة الخفية أو مشوبة بها شوبا يخرج عن حد الإخلاص بسببه.

بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

اعلم أن العمل إذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس فقد اختلف الناس في أن ذلك هل يقتضي ثوابا، أم يقتضي عقابا، أم لا يقتضي شيئا أصلا فلا يكون له ولا عليه. أما الذي لم يُرد به إلا الرياء فهو عليه قطعا وهو سبب المقت والعقاب، وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب، وإنما النظر في المشوب وظاهر الأخبار تدل على أنه لا ثواب له، وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه. والذي ينقدح لما فيه والعلم عند الله أن ينظر إلى قدر قوة الباعث فإن كان الباعث الديني مساويا للباعث النفسي تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع، وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب، نعم العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرد للرياء ولم يمتزج به شائبه التقرب. وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني، وهذا لقوله تعالى:{فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره}، ولقوله تعالى:{إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها}، فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير بل إن كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة، وإن كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد... ومع هذا فلا ينبغي أن يُترك العمل عند خوف الآفة والرياء، فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه، إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص، ومهما تُرك العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعا. وقد حُكي أن بعض الفقراء كان يخدم أبا سعيد الخراز في أعماله، فتكلم أبو سعيد في الإخلاص يوما، يريد إخلاص الحركات، فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه بالإخلاص، فتعذر عليه قضاء الحوائج، واستضر الشيخ بذلك فسأله عن أمره، فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الإخلاص وأنه يعجز عنها في أكثر أعماله فيتركها. فقال أبو سعيد لا تفعل إذ الإخلاص لا يقطع المعاملة، فواظب على العمل واجتهد في تحصيل الإخلاص، فما قلت لك اترك العمل وإنما قلت لك أخلص العمل. وقد قال الفضيل ترك العمل بسبب الخَلق رياء، وفعله لأجل الخلق شرك.

الباب الثالث في الصدق وفضيلته وحقيقته

فضيلة الصدق: قال الله تعالى:{رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه}، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الصدق يهدى إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا". ويكفي في فضيلة الصدق أن الصِّدِيق مشتق منه، والله تعالى وصف الأنبياء به في معرض المدح والثناء فقال:{واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا}، وقال:{واذكر في الكتاب إسمعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا}، وقال تعالى:{واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا}. وقال ابن عباس: "أربع من كن فيه فقد ربح: الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر". وقال أبو سليمان: "اجعل الصدق مطيتك، والحق سيفك، والله تعالى غاية طلبتك". وقال رجل لحكيم: ما رأيت صادقا. فقال له لو كنت صادقا لعرفت

الصادقين. وعن محمد بن علي الكناني قال: "وجدنا دين الله تعالى مبنيا على ثلاثة أركان: على الحق والصدق والعدل، فالحق على الجوارح، والعدل على القلوب، والصدق على العقول". وقال الثوري في قوله تعالى:{ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة}، قال: هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين. وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: "يا داود من صدقني في سريرته صدقته عند المخلوقين في علانيته". وقال بعضهم: أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة ولا يتم بعضها إلا ببعض: الإسلام الخالص عن البدعة والهوى، والصدق لله تعالى في الأعمال، وطيب المطعم. وقال أبو بكر الوراق: احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى، والرفق فيما بينك وبين الخلق. وقيل لذي النون هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل؟ فقال: قد بقينا من الذنوب حيارى نطلب الصدق ما إليه سبيل، فدعاوى الهوى تخف علينا وخلاف الهوى علينا ثقيل. وعن الجنيد في قوله تعالى:{ليسأل الصادقين عن صدقهم} قال: يسأل الصادقين عند أنفسهم عن صدقهم عند ربهم، وهذا أمر على خطر.

بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان: صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها. فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صديق لأنه مبالغة في الصدق. ثم هم أيضا على درجات، فمن كان له حظ في الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه.

الصدق الأول صدق اللسان: وذلك لا يكون إلا في الإخبار، أو فيما يتضمن الإخبار، وينبه عليه. والخبر إما أن يتعلق بالماضي أو بالمستقبل، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه. وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق. وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها، فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق. ولكن لهذا الصدق كمالان، أحدهما الاحتراز عن المعاريض (المعراض: التورية أي إرادة الشيء وإظهار غيره)، فقد قيل في المعاريض مندوحة عن الكذب، وذلك لأنها تقوم مقام الكذب. إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه، إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال، وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم، وفي الحذر عن الظَلَمة، وفي قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك. فمن اضطُر إلى شيء من ذلك فصدِقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين، فإذا نطق به فهو صادق، وإن كان كلامه مُفهِما غير ما هو عليه. لأن الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه، فلا يُنظر إلى صورته بل إلى معناه. نعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعاريض ما وجد إليه سبيلا، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توجه إلى سفر ورى بغيره، وذلك كي لا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيُقصد وليس هذا من الكذب في شيء. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو أنمى خيرا"، ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع: من أصلح بين اثنين، ومن كان له زوجتان، ومن كان في مصالح الحرب. والصدق ههنا يتحول إلى النية، فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير. فمهما وضح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير إرادته صار صادقا وصديقا كيفما كان لفظه، ثم التعريض فيه أولى. فالكمال الأول في اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعاريض أيضا إلا عند الضرورة. والكمال الثاني أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه، كقوله:{وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض}، فإن قلبه إن

كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا بأماني الدنيا وشهواته فهو كذب، وكقوله:{إياك نعبد}، وقوله: "أنا عبد الله"، فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقا، ولو طولب يوم القيامة بالصدق في قوله أنا عبد الله لعجز تحقيقه، فإنه إن كان عبدا لنفسه أو عبدا لدنيا أو عبدا لشهواته لم يكن صادقا في قوله. وكل ما تقيد العبد به فهو عبد له، كما قال عيسى عليه السلام يا عبيد الدنيا، وقال نبينا صلى الله عليه وسلم: "تعس عبد الدنيا، وتعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخميصة"، فسمى كل من تقيد قلبه بشيء عبدا له. **وإنما العبد الحق لله عز وجل من أُعتق أولا من غير الله تعالى فصار حرا مطلقا**، فإذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا فحلت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبمحبته، وتقيد باطنه وظاهره بطاعته، فلا يكون له مراد إلا الله تعالى، ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية، وهو أن يُعتق أيضا عن إرادته لله من حيث هو، بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو إبعاد فتفنى إرادته في إرادة الله تعالى. وهذا عبد عُتق عن غير الله فصار حرا، ثم عاد وعُتق عن نفسه فصار حرا وصار مفقودا لنفسه موجودا لسيده ومولاه، إن حركه تحرك، وإن سكنه سكن، وإن ابتلاه رضي، لم يبق فيه متسع لطلب والتماس واعتراض بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل، وهذا منتهى الصدق في العبودية لله تعالى. فالعبد الحق هو الذي وجوده لمولاه لا لنفسه، وهذه درجة الصديقين. وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين وبعدها تتحقق العبودية لله تعالى، وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقا ولا صديقا فهذا هو معنى الصدق في القول.

الصدق الثاني في النية والإرادة: ويرجع ذلك إلى الإخلاص، وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية، وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبا. فيرجع أحد معاني الصدق إلى خلوص النية، وهو الإخلاص، فكل صادق فلا بد وأن يكون مخلصا.

الصدق الثالث صدق العزم: فإن الإنسان قد يُقدِّم العزم على العمل، فيقول في نفسه إن رزقني الله مالا تصدقت بجميعه أو بشطره، أو إن لقيت عدوا في سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتلت، وإن أعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق، فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه، وهي عزيمة جازمة صادقة، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة، فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة، كما يقال لفلان شهوة صادقة، ويقال هذا المريض شهوته كاذبة مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوى أو كانت ضعيفة، فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى. والصادق والصديق هو الذى تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد، بل تسخو نفسه أبدا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات.

الصدق الرابع في الوفاء بالعزم: فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال، إذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة. فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم، وهذا يضاد الصدق فيه. ولذلك قال الله تعالى:{رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه}، فقد روى عن أنس أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال: أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه، أما والله لئن أراني الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما أصنع. قال: فشهد أحدا في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ فقال واها لريح الجنة أنى أجد ريحها دون أحد، فقاتل حتى قُتل، فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة، فقالت أخته بنت النضر ما عرفت أخى إلا

بثيابه، فنزلت هذه الآية. ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيدا، وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:{رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر}، وقال فضالة بن عبيد سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "الشهداء أربعة، رجل مؤمن جيد الإيمان لقى العدو فصدق الله حتى قُتل، فذلك الذى يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا"، ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته، قال الراوى فلا أدرى قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، "ورجل جيد الإيمان إذا لقى العدو فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح أتاه سهم عاثر فقتله فهو في الدرجة الثانية، ورجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا لقى العدو فصدق الله حتى قُتل فذاك في الدرجة الثالثة، ورجل أسرف على نفسه لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الرابعة". وقال مجاهد رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود فقالا إن رزقنا الله تعالى مالا لنتصدقن فبخلوا به، فنزلت:{ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين}، وقال بعضهم إنما هو شيء نووه في أنفسهم لم يتكلموا به، فقال تعالى:{ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون}، فجعل العزم عهدا، وجعل الخِلف فيه كذبا، والوفاء به صدقا. وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث، فإن الناس قد تسخو بالعزم ثم تكيع عند الوفاء لشدته عليها ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الأسباب.

الصدق الخامس في الأعمال: وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به، لا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر، وهذا مخالف ما ذكرناه من ترك الرياء، لأن المرائى هو الذي يقصد ذلك. ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة فمن ينظر إليه يراه قائمابين يدى الله تعالى وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته، فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق في الأعمال. وكذلك قد يمشى الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفا بذلك الوقار، فهذا غير صادق في عمله وإن لم يكن ملتفتا إلى الخلق ولا مرائيا إياهم. ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره. إذن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الإخلاص، وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق. وقال أبو يعقوب النهر جوري: **الصدق موافقة الحق في السر والعلانية**، فإذن مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق.

الصدق السادس، وهو أعلى الدرجات وأعزها، الصدق في مقامات الدين: كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور، فإن هذه الأمور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها. وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سُمي صاحبه صادقا فيه، كما يقال فلان صدق القتال، ويقال هذا هو الخوف الصادق، وقال الله تعالى:{إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا} إلى قوله:{أولئك هم الصادقون}، وقال تعالى:{ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر} إلى قوله:{أولئك الذين صدقوا}. وسئل أبو ذر عن الإيمان فقرأ هذه الآية، فقيل له سألناك عن الإيمان، فقال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقرأ هذه الآية. ولنضرب للخوف مثلا فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفا ينطلق عليه الاسم

ولكنه خوف غير صادق أى غير بالغ درجة الحقيقة، أما تراه إذا خاف سلطانا أو قاطع طريق فى سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرائصه ويتنغص عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه وينقسم عليه فكره حتى لا ينتفع به أهله وولده، وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار ،كل ذلك خوفا من درك المحذور، ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان معصية عليه. فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جدا ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها، ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله، إما ضعيف وإما قوي، فإذا قوى سمى صادقا فيه فمعرفة الله تعالى وتعظيمه والخوف منه لا نهاية لها. ولذلك قال ابن عمر رضى الله عنهما: لن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تنظر الناس كلهم حمقى في دين الله. فالصادق إذن في جميع هذه المقامات عزيز. ثم درجات الصدق لا نهاية لها، وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض، فإن كان صادقا في الجميع فهو الصديق حقا. قال سعد بن معاذ ثلاثة أنا فيهن قوى وفيما سواهن ضعيف: ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسى حتى أفرغ منها، ولا شيعت جنازة فحدثت نفسى بغير ما هى قائلة وما هو مقول لها حتى يُفرغ من دفنها، وما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولا إلا علمت أنه حق. فقال ابن المسيب ما ظننت أن هذه الخصال تجتمع إلا في النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا صدق في هذه الأمور. وكم قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة واتبعوا الجنائز ولم يبلغوا هذا المبلغ فهذه هي درجات الصدق ومعانيه. والكلمات المأثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق في الأغلب لا تتعرض إلا لآحاد هذه المعاني. نعم قد قال أبو بكر الوراق: الصدق ثلاثة، صدق التوحيد، وصدق الطاعة، وصدق المعرفة. فصدق التوحيد لعامة المؤمنين، قال الله تعالى:{والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون}، وصدق الطاعة لأهل العلم والورع، وصدق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض. وكل هذا يدور على ما ذكرناه في الصدق السادس، ولكنه ذكر أقسام ما فيه الصدق، وهو أيضا غير محيط بجميع الأقسام. وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: إني إذا أحببت عبدا ابتليته ببلايا لا تقوم لها الجبال لأنظر كيف صدقه، فإن وجدته صابرا اتخذته وليا وحبيبا، وإن وجدته جزوعا يشكونى إلى خلقى خذلته ولا أبالى. فإذن من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعا وكراهة اطلاع الخلق عليها.

كتاب المراقبة والمحاسبة

وهو الكتاب الثامن من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

قال الله تعالى:{ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين}، وقال تعالى:{ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا}، وقال تعالى:{يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد}، وقال تعالى:{يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره}، وقال تعالى:{ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون}، وقال تعالى:{يوم

تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه}، وقال تعالى:{واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه}، فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد، وأنهم سيناقشون في الحساب ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات، ومحاسبتها في الخطرات واللحظات. فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه. ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت في عرصات القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزى والمقت سيئاته. فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله، وقد أمرهم بالصبر والمرابطة، فقال عز من قائل:{يا أيها الذين آمنو اصبروا وصابروا ورابطوا}، فرابطوا أنفسهم أولا بالمشارطة ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة ثم بالمعاتبة.

المقام الاول من المرابطة: المشارطة

اعلم أن مطالب المتعاملين في التجارات المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح. وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه، فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة، وإنما مطالبه وربحه تزكية النفس، لأن بذلك فلاحها، قال الله تعالى:{قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها}. وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة، والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة، إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها، كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله. وكما أن الشريك يصير خصما منازعا يجاذبه في الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولا، ويراقبه ثانيا، ويحاسبه ثالثا، ويعاقبه أو يعاتبه رابعا، فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولا، فيوظف عليها الوظائف، ويشرط عليها الشروط، ويرشدها إلى طريق الفلاح، ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق؛ ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة، فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال، ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها. فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيرا من تدقيقه في أرباح الدنيا. فحتم على كل ذى حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد. فإنقباض هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل.

فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق في مجاريها، ويحذرها مغبة الإهمال ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد، فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها، {وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين}. فهذا وما يجرى مجراه هو أول مقام المرابطة مع النفس، وهي محاسبة قبل العمل. والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير، قال الله تعالى:{واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه}. وهذا للمستقبل. وكل نظر في كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فإنه يسمى محاسبة، فالنظر فيما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة، وقد قال الله تعالى:{يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا}، وقال تعالى:{يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا}، وقال تعالى:{ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه}، ذكر ذلك تحذيرا وتنبيها للاحتراز منه في المستقبل. وروى عبادة بن الصامت أنه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه: "إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته، فإن كان رشدا فامضه وإن كان غيا فانته عنه". وقال بعض الحكماء إذا أردت أن يكون العقل غالبا للهوى فلا تعمل

بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة، فإن مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة. وقال لقمان **إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة**. وروى شداد بن أوس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله"، دان نفسه أي حاسبها، ويوم الدين يوم الحساب، وقوله تعالى:{أئنا لمدينون}، أي لمحاسبون. وقال عمر رضى الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتهيئوا للعرض الأكبر.

المرابطة الثانية: المراقبة، إذا أوصى الإنسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخوض في الأعمال وملاحظاتها بالعين الكالئة، فإنها إن تُركت طغت وفسدت. ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها. أما الفضيلة فقد سأل جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال: "**أن تعبد الله كأنك تراه**". وقال عليه السلام: "أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك". وقد قال تعالى:{أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت}، وقال تعالى:{ألم يعلم بأن الله يرى}، وقال الله تعالى:{إن الله كان عليكم رقيبا}، وقال تعالى:{والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم بشهاداتهم قائمون}. وقال ابن المبارك لرجل: راقب الله تعالى، فسأله عن تفسيره، فقال: كن أبدا كأنك ترى الله عز وجل. وقال ابن عطاء: أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات. وسئل المحاسبي عن المراقبة فقال: أولها علم القلب بقرب الله تعالى. وقال محمد بن علي الترمذي: **اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه**. وسئل بعضهم عن قوله تعالى:{رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه}، فقال معناه ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده. وسئل ذو النون بم ينال العبد الجنة؟ فقال: بخمس، استقامة ليس فيها روغان، واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية، وانتظار الموت بالتأهب له، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب. وقد قيل: إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت، ولكن قل على رقيب، ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب، ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غدا إذًا للناظرين قريب. وقال سفيان الثورى: عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة.

بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها

اعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه. فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال أنه يراقب فلانا ويراعى جانبه. ويُعنى بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة، وتثمر تلك الحالة أعمالا في الجوارح وفي القلب. أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه. وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر، عالم بالسرائر، رقيب على أعمال العباد، قائم على كل نفس بما كسبت. وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف، بل أشد من ذلك. فهذه المعرفة إذا صارت يقينا، أعنى أنها خلت عن الشك ثم استولت بعد ذلك على القلب قهرته، فرب علم لا شك فيه لا يغلب على القلب، كالعلم بالموت، فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه. فحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة، فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه، أو هو لهوى النفس فيتقيه ويزجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به. فإن الخطوة الأولى في الباطل إذا لم تُدفع أورثت الرغبة،

والرغبة تورث الهم، والهم يورث جزم القصد، والقصد يورث الفعل، والفعل يورث البوار والمقت. فينبغي أن تُحسم مادة الشر من منبعه الأول وهو الخاطر، فإن جميع ما وراءه يتبعه. النظر الثاني للمراقبة عند الشروع في العمل، وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه، ويُحسن النية في إتمامه، ويُكمل صورته، ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه؛ وهذا ملازم له في جميع أحواله، فإنه لا يخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون، فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك قدَر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب. فإذن لا يخلو العبد إما أن يكون في طاعة أو في معصية أو في مباح، فمراقبته في الطاعة بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات، وإن كان في معصية فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكر، وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها. ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بلية لا بد له من الصبر عليها، ونعمة لا بد له من الشكر عليها، وكل ذلك من المراقبة. فينبغي أن يتفقد العبد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة، فإذا كان فارغا من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها، فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون، والأرباح تُنال بمزايا الفضائل، فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته، كما قال تعالى:{ولا تنس نصيبك من الدنيا}، وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة، فإن الساعات ثلاث، ساعة مضت لا تعب فيها على العبد كيفما انقضت في مشقة أو رفاهية، وساعة مستقبلة لم تأت بعد لا يدري العبد أيعيش إليها أم لا ولا يدرى ما يقضى الله فيها، وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه، فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة، وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى، ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها، **بل يكون إبن وقته كأنه في آخر أنفاسه، فلعله آخر أنفاسه وهو لا يدرى، وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة**.

المرابطة الثالثة محاسبة النفس بعد العمل، ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها. أما الفضيلة فقد قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد}، وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال. وفي الخبر أنه عليه السلام جاءه رجل فقال يا رسول الله أوصنى، فقال أمستوص أنت؟ فقال نعم. قال: "إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن كان رشدا فامضه وإن كان غيا فانته عنه". وقال تعالى:{وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون}، والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه. وقال تعالى:{إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون}. وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب، فقيل له يا أبا يوسف قد كان في بنيك وغلمانك ما يكفونك هذا، فقال أردت أن أجرب نفسي هل تنكره. وقال الحسن: "**المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبه**"، ثم فسر المحاسبة فقال: إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول والله إنك لتعجبني وإنك من حاجتي ولكن هيهات حيل بيني وبينك، وهذا حساب قبل العمل، ثم قال ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول ماذا أردت بهذا، والله لا أعذر بهذا، والله لا أعود لهذا أبدا إن شاء الله. وقال أنس بن مالك سمعت عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يوما وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطا (أي بستان) فسمعته يقول وبيني وبينه جدار وهو في الحائط: **عمر ابن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ، والله لتتقين الله أو ليعذبنك**. وقال إبراهيم التيمي مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها،

ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي يا نفس أي شيء تريدين؟ فقالت أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحا. قلت فأنت في الأمنية فاعملي. وقال مالك بن دينار سمعت الحجاج يخطب وهو يقول: رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره، رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به، رحم الله امرأ نظر في مكياله، رحم الله امرأ نظر في ميزانه، فما زال يقول حتى أبكاني. وحكى صاحب للأحنف ابن قيس قال كنت أصحبه فكان عامة صلاته بالليل الدعاء، وكان يجئ إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه ياحنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا، ما حملك على ما صنعت يوم كذا.

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلم أن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق، فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصا منهم على الدنيا وخوفا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته، ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياما قلائل، فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد! ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق، نعوذ بالله من ذلك. ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره، وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل. فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي، وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعامله نفسه الأمارة بالسوء فيحاسبها على الفرائض أولا، فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها في مثلها، وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء، وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفى منها ما يتدارك به ما فرط كما يصنع التاجر بشريكه. وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يُغبن في شيء منها، فينبغي أن يتقى غبينة النفس ومكرها فإنها خداعة مُلبِّسة مكارة، فليطالبها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ماتكلم به طول نهاره، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة، وهكذا عن نظره، بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه، حتى عن سكوته أنه لِم سكت، وعن سكونه لِم سكن.

المرابطة الرابعة في معاقبة النفس على تقصيرها، مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفه معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى، فلا ينبغى أن يهملها، فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي، وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها، وكان ذلك سبب هلاكها، بل ينبغي أن يعاقبها.

كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وهو الكتاب التاسع من ربع العادات الثاني من كتب إحياء علوم الدين

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد. وقد كان الذي خفنا أن يكون فإنا لله وإنا إليه راجعون، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه، وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق، وانمحت عنها مراقبة الخالق، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم. فمن سعى في تلافي هذه الفترة وسد هذه الثلمة، إما متكفلا بعملها أو متقلدا لتنفيذها، مجددا لهذه السنة الداثرة، ناهضا بأعبائها ومتشمرا في إحيائها، كان مستأثرا من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها، ومستبدا بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها. وها نحن نشرح علمه في أربعة أبواب: الباب الأول في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضيلته، الباب الثاني في أركانه وشروطه، الباب الثالث في مجاريه وبيان المنكرات المألوفة في العادات، الباب الرابع في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

الباب الأول: في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضيلته والمذمة في إهماله وإضاعته

ويدل على ذلك بعد إجماع الأمة عليه وإشارات العقول السليمة إليه، الآيات والأخبار والآثار. أما الآيات فقوله تعالى:{ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون}. ففي الآية بيان الإيجاب فإن قوله تعالى:{ولتكن} **أمر**، وظاهر الأمر الإيجاب، وفيها بيان أن الفلاح منوط به، إذ حصر وقال:{وأولئك هم المفلحون}. وفيها بيان **أنه فرض كفاية لا فرض عين**، وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين، إذ لم يقل كونوا كلكم آمرين بالمعروف، بل قال:{ولتكن منكم أمة}. فإذا، مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين، واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين، **وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون عم الحرج كافة القادرين عليه لا محالة**. وقال تعالى:{ليسوا سواء. من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون. يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين}، **فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**. وقال تعالى:{والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة}، فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فالذي هجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية. وقال تعالى:{لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون}، وهذا غاية التشديد، **إذ علل استحقاقهم للعنة بتركهم النهي عن المنكر**. وقال عز وجل:{كنتم

خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر}، وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ بين أنهم كانوا به خير أمة أخرجت للناس. وقال تعالى:{فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون}، فبين أنهم استفادوا النجاة بالنهي عن السوء، ويدل ذلك على الوجوب أيضا. وقال تعالى:{الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر}، فقرن ذلك بالصلاة والزكاة في نعت الصالحين والمؤمنين. وقال تعالى:{وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان}، **وهو أمر جزم، ومعنى التعاون الحث عليه، وتسهيل طرق الخير، وسد سبل الشر والعدوان بحسب الإمكان**. وقال تعالى:{لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون}، فبين أنهم أثموا بترك النهي. وقال تعالى:{فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض}، الآية، **فبين أنه أهلك جميعهم إلا قليلا منهم كانوا ينهون عن الفساد**. وقال تعالى:{يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين}، وذلك هو الأمر بالمعروف للوالدين والأقربين. وقال تعالى:{لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما}، وقال تعالى:{وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما}، الآية، والإصلاح نهي عن البغي وإعادة إلى الطاعة، فإن لم يُفعل فقد أمر الله تعالى بقتاله، فقال:{فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله}، وذلك هو النهي عن المنكر. وأما الأخبار، فمنها ما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال في خطبة خطبها: "أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها: {يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم}. وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده". وروى عن أبي ثعلبة الخشني أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى:{لا يضركم من ضل إذا اهتديتم}، فقال: "يا أبا ثعلبة مر بالمعروف وانه عن المنكر، فإذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك، ودع عنك العوام. إن من ورائكم فتنا كقطع الليل المظلم للمتمسك فيها بمثل الذي أنتم عليه أجر خمسين منكم" قيل بل منهم يا رسول الله، قال: "لا بل منكم لأنكم تجدون على الخير أعوانا ولا يجدون عليه أعوانا". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إياكم والجلوس على الطرقات"، قالوا ما لنا بد إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: "فإذا أبيتم إلا ذلك فأعطوا الطريق حقها". قالوا وما حق الطريق؟ قال: "غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" (متفق عليه). وأما الآثار فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه: لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطانا ظالما لا يجل كبيركم ولا يرحم صغيركم، ويدعوا عليه خياركم فلا يستجاب لهم، وتستنصرون فلا تُنصرون، وتستغفرون فلا يُغفر لكم. وسئل حذيفة رضي الله عنه عن ميت الأحياء فقال: الذي لا ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه. وقال بلال بن سعد: إن المعصية إذا أُخفيت لم تضر إلا صاحبها، فإذا أُعلنت ولم تُغَير أضرت بالعامة. وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يأتي العمال، ثم قعد عنهم فقيل له لو أتيتهم فلعلهم يجدون في أنفسهم. فقال أرهب إن تكلمت أن يروا أن الذي بي غير الذي بي، وإن سكت رهبت أن آثم. وهذا يدل على أن من عجز عن الأمر بالمعروف فعليه أن يبعد عن ذلك الموضع ويستتر عنه حتى لا يجري بمشهد منه. وقال علي بن أبي طالب

رضي الله عنه: أول ما تغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم، ثم الجهاد بألسنتكم، ثم الجهاد بقلوبكم. فإذا لم يعرف القلب المعروف ولم ينكر المنكر نُكس فجُعل أعلاه أسفله. وقال سهل بن عبد الله رحمه الله: أيما عبد عمل في شيء من دينه بما أُمر به أو نُهي عنه، وتعلق به عند فساد الأمور وتنكرها وتشوش الزمان، فهو ممن قد قام لله في زمانه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ معناه أنه إذا لم يقدر إلا على نفسه فقام بها وأنكر أحوال الغير بقلبه فقد جاء بما هو الغاية في حقه. فقد ظهر بهذه الأدلة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، وأن فرضه لا يسقط مع القدرة إلا بقيام قائم به. فلنذكر الآن شروطه وشروط وجوبه.

الباب الثاني: في أركان الأمر بالمعروف وشروطه

اعلم أن الأركان في الحسبة التي هي عبارة شاملة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أربعة: المحتسب، والمحتسب عليه، والمحتسب فيه، ونفس الاحتساب. فهذه أربعة أركان ولكل واحد منها شروطه. **الركن الأول: المحتسب**، وله شروط وهو أن يكون مكلفا مسلما قادرا، فيخرج منه المجنون والصبي والكافر والعاجز، ويدخل فيه آحاد الرعايا وإن لم يكونوا مأذونين، ويدخل فيه الفاسق والرقيق والمرأة. **أما الشرط الأول وهو التكليف**، فلا يخفى وجه اشتراطه فإن غير المكلف لا يلزمه أمر، وما ذكرناه أردنا به شرط الوجوب، فأما إمكان الفعل وجوازه فلا يستدعي إلا العقل، وأما **الشرط الثاني وهو الإيمان**، فلا يخفى وجه اشتراطه، لأن هذا نصرة للدين، فكيف يكون من أهله من هو جاحد لأصل الدين وعدو له. وأما **الشرط الثالث وهو العدالة**، فقد اعتبرها قوم وقالوا ليس للفاسق أن يحتسب، وربما استدلوا فيه بالنكير الوارد على من يأمر بما لا يفعله، مثل قوله تعالى:{أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم}، وقوله تعالى:{كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون}، وبما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مررت ليلة أسرى بي بقوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت من أنتم فقالوا كنا نأمر بالخير ولا نأتيه وننهى عن الشر ونأتيه". وربما استدلوا من طريق القياس بأن هداية الغير فرع للإهتداء، وكذلك تقويم الغير فرع للاستقامة، والإصلاح زكاة عن نصاب الصلاح. فمن ليس بصالح في نفسه فكيف يُصلح غيره؟ ومتى يستقيم الظل والعود أعوج؟ وكل ما ذكروه خيالات، وإنما الحق أن للفاسق أن يحتسب، وبرهانه هو أن نقول هل يُشترط في الإحتساب أن يكون متعاطيه معصوما عن المعاصي كلها؟ فإن شُرط ذلك فهو خرق للإجماع، ثم حسم لباب الاحتساب، إذ لا عصمة للصحابة فضلا عمن دونهم، والأنبياء عليهم السلام قد اختلف في عصمتهم عن الخطايا، والقرآن العزيز دال على نسبة آدم عليه السلام إلى المعصية وكذا جماعة من الأنبياء. **الشرط الرابع، كونه مأذونا من جهة الإمام والوالي**، فقد شرط قوم هذا الشرط ولم يثبتوا للآحاد من الرعية الحسبة، وهذا الاشتراط فاسد، فإن الآيات والأخبار التي أوردناها تدل على أن كل من رأى منكرا فسكت عليه عصى إذ يجب نهيه أينما رآه وكيفما رآه على العموم، فالتخصيص بشرط التفويض من الإمام تحكم لا أصل له. فإن قيل في الأمر بالمعروف إثبات سلطنة وولاية واحتكام على المحكوم عليه، ولذلك لم يثبت للكافر على المسلم مع كونه حقا فينبغي أن لا يثبت لآحاد الرعية إلا بتفويض من الوالي وصاحب الأمر، فنقول أما الكافر فممنوع لما فيه من السلطنة وعز الاحتكام، والكافر ذليل فلا يستحق أن ينال عز التحكم على المسلم، وأما آحاد المسلمين فيستحقون هذا العز بالدين والمعرفة، وما فيه من عز السلطنة والاحتكام لا يحوج إلى تفويض، كعز التعليم والتعريف. إذ لا خلاف في أن تعريف التحريم والايجاب لمن هو جاهل ومُقدِم على المنكر بجهله لا يحتاج إلى إذن الوالي، وفيه عز الإرشاد، وعلى المعرف ذلك التجهيل، وذلك يكفي فيه مجرد الدين، وكذلك النهي. وشرح القول في هذا أن

الحسبة لها خمس مراتب كما سيأتي؛ أولها التعريف، والثاني الوعظ بالكلام اللطيف، والثالث السب والتعنيف، ولست أعني بالسب الفحش، بل أن يقول يا جاهل يا أحمق ألا تخاف الله وما يجري هذا المجرى، والرابع المنع بالقهر بطريق المباشرة ككسر الملاهي وإراقة الخمر واختطاف الثوب الحرير من لابسه واستلاب الثوب المغصوب منه ورده على صاحبه، والخامس التخويف والتهديد بالضرب ومباشرة الضرب له حتى يمتنع عما هو عليه كالمواظب على الغيبة والقذف، فإن سلب لسانه غير ممكن، ولكن يُحمل على اختيار السكوت بالضرب، وهذا قد يُحوِج إلى استعانة وجمع أعوان من الجانبين ويجر ذلك إلى قتال. وسائر المراتب لا يخفى وجه استغنائها عن إذن الإمام إلا المرتبة الخامسة. أما التعريف والوعظ فكيف يحتاج إلى إذن الإمام، وأما التجهيل والتحميق والنسبة إلى الفسق وقلة الخوف من الله وما يجري مجراه فهو كلام صدق، والصدق مستحق، بل أفضل الدرجات كلمة حق عند إمام جائر كما ورد في الحديث، فإذا جاز الحكم على الإمام على مراغمته فكيف يحتاج إلى إذنه، وكذلك كسر الملاهي وإراقة الخمور فإنه تعاطي ما يعرف كونه حقا من غير اجتهاد فلم يفتقر إلى الإمام، وأما جمع الاعوان وشهر الأسلحة فذلك قد يجر إلى فتنة عامة ففيه نظر.

وعلى المحتسب اتباع اجتهاده في ذلك كله ولهذه الدقائق نقول العامي ينبغي له أن لا يحتسب إلا في الجليات المعلومة كشرب الخمر والزنا وترك الصلاة، فأما ما يعلم كونه معصية بالإضافة إلى ما يطيف به من الأفعال ويفتقر فيه إلى اجتهاد، فالعامي إن خاض فيه كان ما يفسده أكثر مما يصلحه. **الركن الثاني للحسبة ما فيه الحسبة**، وهو كل منكر موجود في الحال ظاهر للمحتسب بغير تجسس معلوم كونه منكرا بغير اجتهاد، فهذه أربعة شروط فلنبحث عنها. **الأول كونه منكرا**، ونعني به أن يكون محذور الوقوع في الشرع وعدلنا عن لفظ المعصية إلى هذا لأن المنكر أعم من المعصية، إذ من رأى صبيا أو مجنونا يشرب الخمر فعليه أن يريق خمره ويمنعه، وكذا إن رأى مجنونا يزني بمجنونة أو بهيمة فعليه أن يمنعه منه، وليس ذلك لتفاحش صورة الفعل وظهوره بين الناس، بل لو صادف هذا المنكر في خلوة لوجب المنع منه، وهذا لا يسمى معصية في حق المجنون إذ معصية لا عاصي بها محال، فلفظ المنكر أدل عليه وأعم من لفظ المعصية. وقد أدرجنا في عموم هذا الصغيرة والكبيرة، فلا تختص الحسبة بالكبائر بل كشف العورة في الحمام والخلوة بالأجنبية واتّبَاع النظر للنسوة الأجنبيات كل ذلك من الصغائر، ويجب النهي عنها. **الشرط الثاني، أن يكون موجودا في الحال** وهو احتراز أيضا عن الحسبة على من فرغ من شرب الخمر، فإن ذلك ليس إلى الآحاد وقد انقرض المنكر واحتراز عما سيوجد في ثاني الحال، كمن يعلم بقرينة حال أنه عازم على الشرب في ليلته فلا حسبة عليه إلا بالوعظ، وإن أنكر عزمه عليه لم يجز وعظه أيضا فإن فيه إساءة ظن بالمسلم، وربما صدق في قوله وربما لا يقدم على ما عزم عليه لعائق. **الشرط الثالث، أن يكون المنكر ظاهرا للمحتسب بغير تجسس**، فكل من ستر معصية في داره وأغلق بابه لا يجوز أن يُتجسس عليه، وقد نهى الله تعالى عنه وقصة عمر وعبد الرحمن بن عوف فيه مشهورة، وكذلك ما روي أن عمر رضي الله عنه تسلق دار رجل فرآه على حالة مكروهة فأنكر عليه، فقال يا أمير المؤمنين إن كنت أنا قد عصيت الله من وجه واحد فأنت قد عصيته من ثلاثة أوجه. فقال وما هي؟ فقال قد قال تعالى:{ولا تجسسوا} وقد تجسست، وقال تعالى:{وأتوا البيوت من أبوابها} وقد تسورت من السطح، وقال:{لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها} وما سلمت، فتركه عمر وشرط عليه التوبة. ولذلك شاور عمر الصحابة رضي الله عنهم وهو على المنبر وسألهم عن الإمام إذا شاهد بنفسه منكرا فهل له إقامة الحد فيه، فأشار علي رضي الله عنه بأن ذلك منوط بعدلين فلا يكفي فيه واحد. فإن قلت فما حد الظهور والاستتار؟

فاعلم أن من أغلق باب داره وتستر بحيطانه فلا يجوز الدخول عليه بغير إذنه لنعرف المعصية، إلا أن يظهر في الدار ظهورا يعرفه من هو خارج الدار، كأصوات المزامير والأوتار إذا ارتفعت بحيث جاوز ذلك حيطان الدار فمن سمع ذلك فله دخول الدار وكسر الملاهي، وكذا إذا ارتفعت أصوات السكارى بالكلمات المألوفة بينهم بحيث يسمعها أهل الشوارع، فهذا إظهار موجب للحسبة. وقد تستر قارورة الخمر في الكم وتحت الذيل، وكذلك الملاهي، فإذا رؤي فاسق وتحت ذيله شيء لم يُجز أن يكشف عنه ما لم يظهر بعلامة خاصة، فإن فسقه لا يدل على أن الذي معه خمر إذ الفاسق محتاج أيضا إلى الخل وغيره، فلا يجوز أن يُستدل بإخفائه، وأنه لو كان حلالا لما أخفاه لأن الأغراض في الإخفاء مما تكثر. وقد أُمرنا بأن نستر ما ستر الله وننكر على من أبدى لنا صفحته. **الشرط الرابع، أن يكون كونه منكرا معلوما بغير اجتهاد**. فكل ما هو في محل الاجتهاد فلا حسبة، فليس للحنفي أن ينكر على الشافعي أكله الضب والضبع ومتروك التسمية، ولا للشافعي أن ينكر على الحنفي شربه النبيذ الذي ليس بمسكر وتناوله ميراث ذوي الأرحام وجلوسه في دار أخذها بشفعة الجوار إلى غير ذلك من مجاري الاجتهاد. **الركن الثالث المحتسب عليه**، وشرطه أن يكون بصفة يصير الفعل الممنوع منه في حقه منكرا، وأقل ما يكفي في ذلك أن يكون إنسانا، ولا يشترط كونه مكلفا إذ بينا أن الصبي لو شرب الخمر مُنع منه واحتسب عليه وإن كان قبل البلوغ، ولا يشترط كونه مميزا إذ بينا أن المجنون لو كان يزني بمجنونة أو يأتي بهيمة مُنع منه. **الركن الرابع نفس الاحتساب**، وله درجات وآداب. أما الدرجات فأولها التعرف، ثم التعريف، ثم النهي، ثم الوعظ والنصح، ثم السب والتعنيف، ثم التغيير باليد، ثم التهديد بالضرب، ثم إيقاع الضرب وتحقيقه، ثم شهر السلاح، ثم الاستظهار فيه بالأعوان وجمع الجنود. أما الدرجة الأولى وهي التعرف، ونعني طلب المعرفة بجريان المنكر، وذلك منهي عنه وهو التجسس الذي ذكرناه، فلا ينبغي أن يسترق السمع على دار غيره ليسمع صوت الأوتار، ولا أن يستنشق ليدرك رائحة الخمر، ولا أن يمس ما في ثوبه ليعرف شكل المزمار، ولا أن يستخبر من جيرانه ليخبروه بما يجري في داره. وبالجملة كل من تقبل روايته لا شهادته ففي جواز الهجوم على داره بقولهم فيه نظر واحتمال، والأولى أن يُمتنع لأن له حقا في أن لا يُتخطى داره بغير إذنه، ولا يسقط حق المسلم عما ثبت عليه حقه إلا بشاهدين. الدرجة الثانية التعريف، فإن المنكر قد يقدم عليه المقدِم بجهله وإذا عرف أنه منكر تركه، **فيجب تعريفه باللطف من غير عنف**. وذلك لأن ضمن التعريف نسبة إلى الجهل والحمق، والتجهيل إيذاء، وقلما يرضى الإنسان بأن ينسب إلى الجهل بالأمور، لا سيما بالشرع. ولذلك ترى الذي يغلب عليه الغضب كيف يغضب إذا نُبه على الخطأ والجهل، وكيف يجتهد في مجاحدة الحق بعد معرفته خيفة من أن تنكشف عورة جهله. والطباع أحرص على ستر عورة الجهل منها على ستر العورة الحقيقية، لأن الجهل قُبح في صورة النفس وسواد في وجهه، وصاحبه ملوم عليه. وقبح السوأتين يرجع إلى صورة البدن، والنفس أشرف من البدن وقبحها أشد من قبح البدن، ثم هو غير ملوم عليه لأنه خِلقة لم يدخل تحت اختياره حصوله ولا في اختياره إزالته وتحسينه، والجهل قبح يمكن إزالته وتبديله بحسن العلم. فلذلك يعظم تألم الإنسان بظهور جهله، ويعظم ابتهاجه في نفسه بعلمه ثم لذته عند ظهور جمال علمه لغيره. الدرجة الثالثة النهي بالوعظ والنصح والتخويف بالله تعالى، وذلك فيمن يقدم على الأمر وهو عالم بكونه منكرا، أو فيمن أصر عليه بعد أن عرف كونه منكرا، كالذي يواظب على الشرب أو على الظلم أو على اغتياب المسلمين أو ما يجري مجراه، فينبغي أن يوعظ ويخوف بالله تعالى، وتورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد في ذلك، وتُحكى له سيرة السلف وعبادة المتقين، **وكل ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب**. الدرجة الرابعة السب والتعنيف بالقول الغليظ الخشن، وذلك يُعدل إليه عند العجز عن

المنع باللطف وظهور مبادىء الإصرار والاستهزاء بالوعظ والنصح، وذلك مثل قول إبراهيم عليه السلام:{أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون}. ولسنا نعني بالسب والفحش بما فيه نسبة إلى الزنا ومقدماته ولا الكذب، بل أن **يخاطبه بما فيه مما لا يعد من جملة الفحش**،كقوله يا فاسق يا أحمق يا جاهل ألا تخاف الله، وكقوله يا غبي وما يجري هذا المجرى. فإن كل فاسق فهو أحمق وجاهل، ولولا حمقه لما عصى الله تعالى، بل كل من ليس بكيس فهو أحمق، والكيس من شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكياسة حيث قال: "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله". ولهذه الرتبة أدبان، أحدهما أن لا يقدم عليها إلا عند الضرورة والعجز عن اللطف، والثاني أن لا ينطق إلا بالصدق ولا يسترسل فيه فيطلق لسانه الطويل بما لا يحتاج إليه، بل يقتصر على قدر الحاجة. فإن علم أن خطابه بهذه الكلمات الزاجرة ليست تزجره فلا ينبغي أن يطلقه، بل يقتصر على إظهار الغضب والاستحقار له والازدراء بمحله لأجل معصيته، وإن علم أنه لو تكلم ضُرب، ولو اكفهر وأظهر الكراهة بوجهه لم يضرب، لزمه ولم يكفه الإنكار بالقلب، بل يلزمه أن يقطب وجهه ويظهر الإنكار له. الدرجة الخامسة التغيير باليد، وذلك ككسر الملاهي وإراقة الخمر، وخلع الحرير من رأسه وعن بدنه ومنعه من الجلوس عليه، ودفعه عن الجلوس على مال الغير، وإخراجه من الدار المغصوبة بالجر برجله، وإخراجه من المسجد إذا كان جالسا وهو جنب وما يجري مجراه. ويُتصور ذلك في بعض المعاصي دون بعض، فأما معاصي اللسان والقلب فلا يقدر على مباشرة تغييرها، وكذلك كل معصية تقتصر على نفس العاصي وجوارحه الباطنة. وفي هذه الدرجة أدبان، أحدهما أن لا يباشر بيده التغيير ما لم يعجز عن تكليف المحتسب عليه ذلك، فإذا أمكنه أن يكلفه المشي في الخروج عن الأرض المغصوبة والمسجد فلا ينبغي أن يدفعه أو يجره، وإذا قدر على أن يكلفه إراقة الخمر وكسر الملاهي وحل دروز ثوب الحرير فلا ينبغي أن يباشر ذلك بنفسه، فإن في الوقوف على حد الكسر نوع عسر، فإذا لم يتعاط بنفسه ذلك كفى الاجتهاد فيه وتولاه من لا حجر عليه في فعله. الثاني أن يقتصر في طريق التغيير على القدر المحتاج إليه، وهو أن لا يأخذ بلحيته في الإخراج ولا برجله إذا قدر على جره بيده، فإن زيادة الأذى فيه مستغنى عنه، وأن لا يمزق ثوب الحرير بل يحل دروزه فقط، ولا يحرق الملاهي والصليب الذي أظهره النصارى بل يبطل صلاحيتها للفساد بالكسر. وحد الكسر أن يصير إلى حالة تحتاج في استئناف إصلاحه إلى تعب يساوي تعب الاستئناف من الخشب ابتداء، وفي إراقة الخمور يتوقى كسر الأواني إن وجد إليه سبيلا، فإن لم يقدر عليها إلا بأن يرمى ظروفها بحجر فله ذلك، ولو كان الخمر في قوارير ضيقة الرءوس ولو اشتغل بإراقتها طال الزمان وأدركه الفساق ومنعوه فله كسرها فهذا عذر، وإن كان لا يحذر ظفر الفساق به ومنعهم ولكن كان يضيع في زمانه وتتعطل عليه أشغاله فله أن يكسرها، فليس عليه أن يضيع منفعة بدنه وغرضه من أشغاله لأجل ظرف الخمر، وحيث كانت الإراقة متيسرة بلا كسر فكسره لزمه الضمان. فإن قلت فهلا جاز الكسر لأجل الزجر وهلا جاز الجر بالرجل في الإخراج عن الأرض المغصوبة ليكون ذلك أبلغ في الزجر، فاعلم أن الزجر إنما يكون عن المستقبل، والعقوبة تكون على الماضي، والدفع على الحاضر الراهن، وليس إلى آحاد الرعية إلا الدفع، وهو إعدام المنكر، فما زاد على قدر الإعدام فهو إما عقوبة على جريمة سابقة أو زجر عن لاحق وذلك إلى الولاة لا إلى الرعية. فإن قلت فليجز للسلطان زجر الناس عن المعاصي بإتلاف أموالهم وتخريب دورهم التي فيها يشربون ويعصون وإحراق أموالهم التي بها يتوصلون إلى المعاصي، فاعلم أن ذلك لو ورد الشرع به لم يكن خارجا عن سنن المصالح، ولكنا لا نبتدع المصالح بل نتبع فيها، وكسر ظروف الخمر قد ثبت عند شدة الحاجة وتركه بعد ذلك لعدم شدة الحاجة لا يكون نسخا بل الحكم يزول بزوال العلة ويعود

بعودها. الدرجة السادسة التهديد والتخويف، كقوله دع عنك هذا أو لأكسرن رأسك أو لأضربن رقبتك أو لآمرن بك وما أشبهه، وهذا ينبغي أن يُقدَّم على تحقيق الضرب إذا أمكن تقديمه. والأدب في هذه الرتبة أن لا يهدده بوعيد لا يجوز له تحقيقه، كقوله لأنهبن دارك أو لأضربن ولدك أو لأسبين زوجتك وما يجري مجراه، بل ذلك إن قاله عن عزم فهو حرام، وإن قاله من غير عزم فهو كذب. الدرجة السابعة مباشرة الضرب باليد والرجل وغير ذلك مما ليس فيه شهر سلاح، وذلك جائز للآحاد بشرط الضرورة والاقتصار على قدر الحاجة في الدفع، فإذا اندفع المنكر فينبغي أن يكف. وكذلك المحتسب يراعي التدريج، فإن احتاج إلى شهر سلاح وكان يقدر على دفع المنكر بشهر السلاح وبالجرح فله أن يتعاطى ذلك ما لم تثر فتنة، كما لو قبض فاسق مثلا على امرأة أو كان يضرب بمزمار معه وبينه وبين المحتسب نهر حائل أو جدار مانع، فيأخذ قوسه ويقول له خل عنها أو لأرمينك إن لم تخل عنها، فله أن يرمي، وينبغي أن لا يقصد المقتل بل الساق والفخذ وما أشبهه ويراعي فيه التدريج، وكذلك يسل سيفه ويقول اترك هذا المنكر أو لأضربنك فكل ذلك دفع للمنكر، ودفعه واجب بكل ممكن. فهذه درجات الحسبة فلنذكر آدابها والله الموفق.

باب آداب المحتسب

قد ذكرنا تفاصيل الآداب في آحاد الدرجات ونذكر الآن جملها ومصادرها. فنقول جميع آداب المحتسب مصدرها ثلاث صفات في المحتسب العلم والورع وحسن الخلق. أما العلم فليعلم مواقع الحسبة وحدودها ومجاريها وموانعها، ليقتصر على حد الشرع فيه. والورع ليردعه عن مخالفة معلومة، فما كل من علم عمِل بعلمه، بل ربما يعلم أنه مسرف في الحسبة وزائد على الحد المأذون فيه شرعا، ولكن يحمله عليه غرض من الأغراض. وليكن كلامه ووعظه مقبولا، فإن الفاسق يهزأ به إذا احتسب، ويورث ذلك جراءة عليه. وأما حسن الخلق فليتمكن به من اللطف والرفق وهو أصل الباب وأسبابه. والعلم والورع لا يكفيان فيه، فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع في قمعه ما لم يكن في الطبع قبوله بحسن الخلق. وعلى التحقيق فلا يتم الورع إلا مع حسن الخلق والقدرة على ضبط الشهوة والغضب، وبه يصبر المحتسب على ما أصابه في دين الله، وإلا فإذا أصيب عرضه أو ماله أو نفسه بشتم أو ضرب نسي الحسبة وغفل عن دين الله واشتغل بنفسه، بل ربما يقدم عليه ابتداء لطلب الجاه والإسم. قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: إذا كنت ممن يأمر بالمعروف فكن من آخذ الناس به وإلا هلكت. وقد قيل: لا تلم المرء على فعله وأنت منسوب إلى مثله، من ذم شيئا وأتى مثله فإنما يزرى على عقله. ولسنا نعني بهذا أن الأمر بالمعروف يصير ممنوعا بالفسق ولكن يسقط أثره عن القلوب بظهور فسقه للناس. وأوصى بعض السلف بنيه فقال: إن إراد أحدكم أن يأمر بالمعروف فليوطن نفسه على الصبر وليثق بالثواب من الله فمن وثق بالثواب من الله لم يجد مس الأذى. فإذن من آداب الحسبة توطين النفس على الصبر، ولذلك قرن الله تعالى الصبر بالأمر بالمعروف فقال حاكيا عن لقمان: {يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك}. ويدل على وجوب الرفق ما استدل به المأمون إذا وعظه واعظ وعنف له في القول فقال: يا رجل ارفق فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني وأمره بالرفق، فقال تعالى: {فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى}.

الباب الثالث في المنكرات المألوفة في العادات

فنشير إلى جمل منها ليُستدل بها على أمثالها إذ لا مطمع في حصرها واستقصائها، فمن ذلك **منكرات المساجد**. اعلم أن المنكرات تنقسم إلى مكروهة وإلى محظورة، فإذا قلنا هذا منكر مكروه فاعلم أن المنع منه مستحب،

والسكوت عليه مكروه وليس بحرام، إلا إذا لم يعلم الفاعل أنه مكروه، فيجب ذكره له، لأن الكراهة حكم في الشرع يجب تبليغه إلى من لا يعرفه. وإذا قلنا منكر محظور أو قلنا منكر مطلقا فنريد به المحظور، ويكون السكوت عليه مع القدرة محظورا. فما يشاهد كثيرا في المساجد إساءة الصلاة بترك الطمأنينة في الركوع والسجود وهو منكر مبطل للصلاة بنص الحديث، فيجب النهي عنه إلا عند الحنفي الذي يعتقد أن ذلك لا يمنع صحة الصلاة إذ لا ينفع النهي معه ومن رأى مسيئا في صلاته فسكت عليه فهو شريكه. ومنها تراسل المؤذنين في الأذان وتطويلهم بمد كلماته وانحرافهم عن صوب القبلة بجميع الصدر في الحيعلتين، أو انفراد كل واحد منهم بأذان ولكن من غير توقف إلى انقطاع أذان الآخر بحيث يضطرب على الحاضرين جواب الأذان لتداخل الأصوات، فكل ذلك منكرات مكروهة يجب تعريفها، فإن صدرت عن معرفة فيستحب المنع منها والحسبة فيها. فكل ذلك من المكروهات المخالفة لسنة الصحابة والسلف. منكرات الشوارع فمن المنكرات المعتادة فيها وضع الاسطوانات وبناء الدكات متصلة بالأبنية المملوكة وغرس الأشجار وإخراج الرواشن والأجنحة ووضع الخشب وأحمال الحبوب والأطعمة على الطرق، فكل ذلك منكر **إن كان يؤدي إلى تضييق الطرق واستضرار المارة**، وإن لم يؤد إلى ضرر أصلا لسعة الطريق فلا يمنع منه. نعم يجوز وضع الحطب وأحمال الأطعمة في الطريق في القدر الذي ينقل إلى البيوت فإن ذلك يشترك في الحاجة إليه الكافة ولا يمكن المنع منه؛ وكذلك ربط الدواب على الطريق بحيث يضيق الطريق وينجس المجتازين منكر يجب المنع منه إلا بقدر حاجة النزول والركوب، وهذا لأن الشوارع مشتركة المنفعة وليس لأحد أن يختص بها إلا بقدر الحاجة، والمرعي هو الحاجة التي ترد الشوارع لأجلها في العادة دون سائر الحاجات، ومنها سوق الدواب وعليها الشوك بحيث يمزق ثياب الناس فذلك منكر، إن أمكن شدها وضمها بحيث لا تمزق أو أمكن العدول بها إلى موضع واسع، وإلا فلا منع إذ حاجة أهل البلد تمس إلى ذلك. نعم لا تترك ملقاة على الشوارع إلا بقدر مدة النقل وكذلك تحميل الدواب من الأحمال ما لا تطيقه منكر يجب منع الملاك منه. **وكذلك طرح القمامة على جواد الطرق وتبديد قشور البطيخ أو رش الماء بحيث يخشى منه التزلق والتعثر كل ذلك من المنكرات**. وكذلك إرسال الماء من الميازيب المخرجة من الحائط في الطريق الضيقة فإن ذلك ينجس الثياب أو يضيق الطريق، فلا يمنع منه في الطرق الواسعة إذ العدول عنه ممكن. **فأما ترك مياه المطر والأوحال والثلوج في الطرق من غير كسح فذلك منكر**، ولكن ليس يختص به شخص معين إلا الثلج الذي يختص بطرحه على الطريق واحد، والماء الذي يجتمع على الطريق من ميزاب معين، فعلى صاحبه على الخصوص كسح الطريق إن كان من المطر، فذلك حسبة عامة، فعلى الولاة تكليف الناس القيام بها وليس للآحاد فيها إلا الوعظ فقط. وكذلك إذا كان له كلب عقور على باب داره يؤذي الناس فيجب منعه منه، وإن كان لا يؤذي إلا بتنجيس الطريق وكان يمكن الاحتراز عن نجاسته لم يمنع منه، وإن كان يضيق الطريق ببسطه ذراعيه فيمنع منه، بل يمنع صاحبه من أن ينام على الطريق أو يقعد قعودا يضيق الطريق فكلبه أولى بالمنع. **منكرات الحمامات** منها الصورة التي تكون على باب الحمام أو داخل الحمام يجب إزالتها على كل من يدخلها إن قدر فإن كان الموضع مرتفعا لا تصل إليه يده فلا يجوز له الدخول إلا لضرورة فليعدل إلى حمام آخر، فإن مشاهدة المنكر غير جائزة ويكفيه أن يشوه وجهها ويبطل به صورتها، ولا يمنع من صور الأشجار وسائر النقوش سوى صورة الحيوان، ومنها كشف العورات والنظر إليها، ومن جملتها كشف الدلاك عن الفخذ وما تحت السرة لتنحية الوسخ، بل من جملتها إدخال اليد تحت الإزار فإن مس عورة الغير حرام كالنظر إليها، ومنها الانبطاح على الوجه بين يدي الدلاك لتغميز الأفخاذ والأعجاز فهذا مكروه إن كان مع حائل، ولكن لا يكون محظورا إذا لم يخش

من حركة الشهوة. نعم يحل التزين بالذهب والحرير للنساء من غير إسراف، ولا أرى رخصة في تثقيب أذن الصبية لأجل تعليق حلق الذهب فيها فإن هذا جرح مؤلم ومثله موجب للقصاص فلا يجوز إلا لحاجة مهمة كالفصد والحجامة والختان والتزين بالحلق غير مهم بل في التقريط بتعليقه على الأذن وفي المخانق والأسورة كفاية عنه فهذا وإن كان معتادا فهو حرام والمنع منه واجب. منها **المنكرات العامة** اعلم أن كل قاعد في بيته أينما كان فليس خاليا في هذا الزمان عن منكر من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف، فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد فكيف في القرى والبوادي، وواجب أن يكون في مسجد ومحلة من البلد فقيه يعلم الناس دينهم، وكذا في كل قرية. وللإنسان أن يقعد في بيته ولا يخرج إلى المسجد لأنه يرى الناس لا يحسنون الصلاة، بل إذا علم ذلك وجب عليه الخروج للتعليم والنهي، وكذا كل من تيقن أن في السوق منكرا يجري على الدوام أو في وقت بعينه وهو قادر على تغييره فلا يجوز له أن يسقط ذلك عن نفسه بالقعود في البيت بل يلزمه الخروج. فإن كان لا يقدر على تغيير الجميع وهو محترز عن مشاهدته ويقدر على البعض لزمه الخروج، لأن خروجه إذا كان لأجل تغيير ما يقدر عليه فلا يضره مشاهدة ما لا يقدر عليه، وإنما يمنع الحضور لمشاهدة المنكر من غير غرض صحيح. **فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات، ثم يعلم ذلك أهل بيته، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه ثم إلى أهل محلته ثم إلى أهل بلده، وهكذا إلى أقصى العالم**. فإن قام به الأدنى سقط عن الأبعد وإلا حُرِج به على كل قادر عليه قريبا كان أو بعيدا، ولا يسقط الحرج ما دام يبقى على وجه الأرض جاهل بفرض من فروض دينه وهو قادر على أن يسعى إليه بنفسه أو بغيره فيعلمه فرضه. وهذا شغل شاغل لمن يهمه أمر دينه يشغله عن تجزئة الأوقات في التفريعات النادرة والتعمق في دقائق العلوم التي هي من فروض الكفايات، ولا يتقدم على هذا إلا فرض عين أو فرض كفاية هو أهم منه.

الباب الرابع في أمر الأمراء والسلاطين ونهيهم عن المنكر

قد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف وأن أوله التعريف وثانيه والوعظ وثالثه التخشين في القول ورابعه المنع بالقهر في الحمل على الحق بالضرب والعقوبة، والجائز من جملة ذلك مع السلاطين الرتبتان الأوليان وهما التعريف والوعظ. وأما المنع بالقهر فليس ذلك لآحاد الرعية مع السلطان، فإن ذلك يحرك الفتنة ويهيج الشر ويكون ما يتولد منه من المحذور أكثر. وأما التخشين في القول كقوله يا ظالم يا من لا يخاف الله وما يجري مجراه فذلك إن كان يحرك فتنة يتعدى شرها إلى غيره لم يجز، وإن كان لا يخاف إلا على نفسه فهو جائز بل مندوب إليه، فلقد كان من عادة السلف التعرض للأخطار والتصريح بالإنكار من غير مبالاة بهلاك المهجة والتعرض لأنواع العذاب لعلمهم بأن ذلك شهادة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ثم رجل قام إلى إمام فأمره ونهاه في ذات الله تعالى فقتله على ذلك" ، وقال صلى الله عليه وسلم: "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر"، ولما علم المتصلبون في الدين أن أفضل الكلام كلمة حق عند سلطان جائر وأن صاحب ذلك إذا قتل فهو شهيد كما وردت به الأخبار قدموا على ذلك موطنين أنفسهم على الهلاك ومحتملين أنواع العذاب وصابرين عليه في ذات الله تعالى ومحتسبين لما يبذلونه من من مهجهم عند الله. وطريق وعظ السلاطين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ما نقل علماء السلف وقد أوردنا جملة من ذلك في باب الدخول على السلاطين في كتاب الحلال والحرام، ونقتصر الآن على حكايات يعرف وجه الوعظ وكيفية الإنكار عليهم. فمنها ما روي من إنكار أبي بكر الصديق رضي الله عنه على أكابر قريش حين قصدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسوء، وكان ابن

أبي شميلة يوصف بالعقل والأدب فدخل على عبد الملك بن مروان فقال له عبد الملك تكلم، قال بم أتكلم وقد علمت أن كل كلام تكلم به المتكلم عليه وبال إلا ما كان لله، فبكى عبد الملك ثم قال يرحمك الله لم يزل الناس يتواعظون ويتواصون. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين إن الناس في القيامة لا ينجون من غصص مرارتها ومعاينة الردى فيها إلا من أرضى الله بسخط نفسه. فبكى عبد الملك ثم قال لا جرم لأجعلن هذه الكلمات مثالا نصب عيني ما عشت. ويُروى عن ابن عائشة أن الحجاج دعا بفقهاء البصرة وفقهاء الكوفة فدخلنا عليه ودخل الحسن البصري رحمه الله آخر من دخل، فقال الحجاج مرحبا بأبي سعيد إلي إلي ثم دعا بكرسي فوضع إلى جنب سريره فقعد عليه فجعل الحجاج يذاكرنا ويسألنا إذ ذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه فنال منه ونلنا منه مقاربة له وفرقا من شره، والحسن ساكت عاض على إبهامه، فقال يا أبا سعيد مالي أراك ساكتا؟ قال ما عسيت أن أقول؟ قال أخبرني برأيك في أبي تراب. قال: سمعت الله جل ذكره يقول:{وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم}، فعلي ممن هدى الله من أهل الإيمان، فأقول ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته وأحب الناس إليه وصاحب سوابق مباركات سبقت له من الله لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه ولا يحول بينه وبينها، وأقول إن كانت لعلي هناة فالله حسبه، والله ما أجد فيه قولا أعدل من هذا. فبسر وجه الحجاج وتغير وقام عن السرير مغضبا فدخل بيتا خلفه وخرجنا. قال عامر الشعبي فأخذت بيد الحسن فقلت يا أبا سعيد أغضبت الأمير وأوغرت صدره. فقال إليك عني يا عامر، يقول الناس عامر الشعبي عالم أهل الكوفة، أتيت شيطانا من شياطين الإنس تكلمه بهواه وتقاربه في رأيه، ويحك يا عامر هلا اتقيت إن سُئلت فصدقت أو سكت فسلِمت. قال عامر: يا أبا سعيد قد قلتها وأنا أعلم ما فيها. قال الحسن: فذاك أعظم في الحجة عليك وأشد في التبعة. قال وبعث الحجاج إلى الحسن فلما دخل عليه قال: أنت الذي تقول قاتلهم الله قتلوا عباد الله على الدينار والدرهم. قال: نعم. قال: ما حملك على هذا؟ قال: **ما أخذ الله على العلماء من المواثيق ليبيننه للناس ولا يكتمونه**. قال: يا حسن أمسك عليك لسانك وإياك أن يبلغني عنك ما أكره فأفرق بين رأسك وجسدك. وحكي أن حطيطا الزيات جيء به إلى الحجاج فلما دخل عليه قال أنت حطيط، قال: نعم، سل عما بدا لك، فإني عاهدت الله عند المقام على ثلاث خصال، إن سئلت لأصدقن، وإن ابتليت لأصبرن، وإن عوفيت لأشكرن. قال فما تقول فيّ؟ قال: أقول إنك من أعداء الله في الأرض تنتهك المحارم وتقتل بالظنة. قال فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؟ قال: أقول إنه أعظم جرما منك وإنما أنت خطيئة من خطاياه. قال: فقال الحجاج ضعوا عليه العذاب. قال فانتهى به العذاب إلى أن شُقِق له القصب ثم جعلوه على لحمه وشدوه بالحبال ثم جعلوا يمدون قصبة قصبة حتى انتحلوا لحمه فما سمعوه يقول شيئا. قال فقيل للحجاج إنه في آخر رمق فقال أخرجوه فارموا به في السوق. قال جعفر فأتيته أنا وصاحب له فقلنا له حطيط ألك حاجة؟ قال **شربة ماء فأتوه بشربة ثم مات، وكان ابن ثمان عشرة سنة رحمة الله عليه**. وعن الشافعي رضي الله عنه قال حدثني عمي محمد بن علي قال إني لحاضر مجلس أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وفيه ابن أبي ذؤيب وكان والي المدينة الحسن بن زيد، قال فأتى الغفاريون فشكوا إلى أبي جعفر شيئا من أمر الحسن بن زيد، فقال الحسن يا أمير المؤمنين سل عنهم ابن أبي ذؤيب، قال فسأله فقال ما تقول فيهم يا ابن أبي ذؤيب؟ فقال: أشهد أنهم أهل تحطم في أعراض الناس كثيرو الأذى لهم. فقال أبو جعفر قد سمعتم، فقال الغفاريون يا أمير المؤمنين سله عن الحسن بن زيد. فقال يا ابن أبي ذؤيب ما تقول في الحسن بن زيد؟ فقال أشهد عليه أنه

يحكم بغير الحق ويتبع هواه. فقال قد سمعت يا حسن ما قال فيك ابن أبي ذؤيب وهو الشيخ الصالح. فقال يا أمير المؤمنين اسأله عن نفسك. فقال ما تقول فيّ؟ قال تعفيني يا أمير المؤمنين. قال أسألك بالله إلا أخبرتني. قال: تسألني بالله كأنك لا تعرف نفسك. قال: والله لتخبرني. قال: أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه فجعلته في غير أهله، وأشهد أن الظلم ببابك فاش. قال فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده في قفا ابن أبي ذؤيب فقبض عليه ثم قال له أما والله لولا أني جالس ههنا لأخذت فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك. قال فقال ابن أبي ذؤيب: يا أمير المؤمنين قد وُلي أبو بكر وعمر فأخذا الحق وقسما بالسوية، وأخذا بأقفاء فارس والروم وأصغرا آنافهم. قال فخلى أبو جعفر قفاه وخلى سبيله. وقال والله لولا أني أعلم أنك صادق لقتلتك. فقال ابن أبي ذؤيب: والله يا أمير المؤمنين إني لأنصح لك من ابنك المهدي. قال فبلغنا أن ابن أبي ذؤيب لما انصرف من مجلس المنصور لقيه سفيان الثوري فقال له يا أبا الحرث لقد سرني ما خاطبت به هذا الجبار، ولكن ساءني قولك له ابنك المهدي. فقال يغفر الله لك يا أبا عبد الله كلنا مهدي كلنا كان في المهد. وعن ابن المهاجر قال قدم أمير المؤمنين المنصور مكة شرفها الله حاجا فكان يخرج من دار الندوة إلى الطواف في آخر الليل يطوف ويصلي ولا يُعلم به، فإذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فيصلى بالناس. فخرج ذات ليلة حين أسحر فبينا هو يطوف إذ سمع رجلا عند الملتزم وهو يقول اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع. فأسرع المنصور في مشيه حتى ملأ مسامعه من قوله ثم خرج فجلس ناحية من المسجد وأرسل إليه فدعاه، فأتاه الرسول وقال له أجب أمير المؤمنين فصلى ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه، فقال له المنصور ما هذا الذي سمعتك تقوله من ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع والظلم، فوالله لقد حشوت مسامعي ما أمرضني وأقلقني. فقال يا أمير المؤمنين إن أمنتني على نفسي أنبأتك بالأمور من أصولها، وإلا اقتصرت على نفسي ففيها لي شغل شاغل. فقال له أنت آمن على نفسك. فقال: الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق وإصلاح ما ظهر من البغي والفساد في الأرض أنت. فقال ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في يدي والحلو والحامض في قبضتي؟ قال: وهل دخل أحدا من الطمع ما دخلك يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى استرعاك أمور المسلمين وأموالهم فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر، وأبوابا من الحديد، وحجبة معهم السلاح، ثم سجنت نفسك فيها منهم، وبعثت عمالك في جمع الأموال وجبايتها، واتخذت وزراء وأعوانا ظلمة، إن نسيت لم يذكروك وإن ذكرت لم يعينوك، وقويتهم على ظلم الناس بالأموال والكراع والسلاح، وأمرت بأن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان نفر سميتهم، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع ولا العاري ولا الضعيف ولا الفقير، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت أن لا يُحجبوا عنك تجبي الأموال ولا تقسمها، قالوا هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه وقد سُخر لنا، فائتمروا على أن لا يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا، وأن لا يخرج لك عامل فيخالف لهم أمرا إلا أقصوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم، وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليتقووا بهم على ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم من الرعية، فامتلأت بلاد الله بالطمع بغيا وفسادا وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل، فإن جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول إليك، وإن أراد رفع صوته أو قصته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ووقّفت للناس رجلا ينظر في

مظالمهم، فإن جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته، وإن كانت للمتظلم به حرمة وإجابة لم يمكنه مما يريد خوفا منهم، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث وهو يدفعه ويعتل عليه، فإذا جهد وأخرج وظهرت صرخ بين يديك فيضرب ضربا مبرحا ليكون نكالا لغيره، وأنت تنظر ولا تنكر ولا تغير، فما بقاء الإسلام وأهله على هذا. ولقد كانت بنو أمية وكانت العرب لا ينتهي إليهم المظلوم إلا رُفعت ظلامته إليهم فيُنصف. ولقد كان الرجل يأتي من أقصى البلاد حتى يبلغ باب سلطانهم فينادي يا أهل الإسلام فيبتدرونه مالك مالك، فيرفعون مظلمته إلى سلطانهم فينتصف. ولقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى أرض الصين وبها ملك فقدمتها مرة وقد ذهب سمع ملكهم فجعل يبكي فقال له وزراؤه مالك تبكي لا بكت عيناك؟ فقال أما إني لست أبكي على المصيبة التي نزلت بي ولكن أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته. ثم قال أما إن كان قد ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب نادوا في الناس ألا لا يلبس ثوبا أحمر إلا مظلوم، فكان يركب الفيل ويطوف طرفي النهار هل يرى مظلوما فينصفه. هذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله قد غلبت رأفته بالمشركين ورقته على شح نفسه في ملكه، وأنت مؤمن بالله وابن عم نبي الله لا تغلبك رأفتك بالمسلمين ورقتك على شح نفسك، فإنك لا تجمع الأموال إلا لواحد من ثلاثة: إن قلت أجمعها لولدي فقد أراك الله عبرا في الطفل الصغير يسقط من بطن أمه وماله على الأرض مال، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه، فما يزال الله تعالى يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه، ولست الذي تعطي بل الله يعطي من يشاء. وإن قلت أجمع المال لأشيد سلطاني فقد أراك الله عبرا فيمن كان قبلك، ما أغنى عنهم ما جمعوه من الذهب والفضة وما أعدوا من الرجال والسلاح والكراع، وما ضرك وولد أبيك ما كنتم فيه من قلة الجدة والضعف حين أراد الله بكم ما أراد. وإن قلت أجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تُدرك إلا بالعمل الصالح يا أمير المؤمنين، هل تعاقب من عصاك من رعيتك بأشد من القتل؟ قال لا. قال: فكيف تصنع بالملك الذي خولك الله وما أنت عليه من ملك الدنيا وهو تعالى لا يعاقب من عصاه بالقتل، ولكن يعاقب من عصاه بالخلود في العذاب الأليم، وهو الذي يرى منك ما عقد عليه قلبك وأضمرته جوارحك، فماذا تقول إذا انتزع الملك الحق المبين ملك الدنيا من يدك ودعاك إلى الحساب، هل يُغني عنك عنده شيء مما كنت فيه مما شححت عليه من ملك الدنيا؟ فبكى المنصور بكاء شديدا حتى نحب وارتفع صوته، ثم قال يا ليتني لم أخلق ولم أك شيئا؟ ثم قال كيف احتيالي فيما خولت فيه ولم أر من الناس إلا خائنا؟ قال يا أمير المؤمنين عليك بالإئمة الأعلام المرشدين. قال ومن هم؟ قال العلماء. قال قد فروا مني. قال: هربوا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر من طريقتك من قبل عمالك، ولكن افتح الأبواب وسهل الحجاب، وانتصر للمظلوم من الظالم، وامنع المظالم وخذ الشيء مما حل وطاب واقسمه بالحق والعدل، وأنا ضامن على أن من هرب منك أن يأتيك فيعاونك على صلاح أمرك ورعيتك. فقال المنصور اللهم وفقني أن أعمل بما قال هذا الرجل. وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فخرج فصلى بهم ثم قال للحرسي عليك بالرجل إن لم تأتني به لأضربن عنقك واغتاظ عليه غيظا شديدا. فخرج الحرسي يطلب الرجل فبينا هو يطوف فإذا هو بالرجل يصلي في بعض الشعاب، فقعد حتى صلى ثم قال يا ذا الرجل أما تتقي الله؟ قال بلى. قال أما تعرفه؟ قال بلى. قال فانطلق معي إلى الأمير فقد آلى أن يقتلني إن لم آته بك. قال ليس لي إلى ذلك من سبيل. قال يقتلني. قال لا. قال كيف؟ قال تحسن تقرأ؟ قال لا فأخرج من مزود كان معه رقا مكتوبا فيه شيء فقال خذه فاجعله في جيبك فإن فيه دعاء الفرج. قال وما دعاء الفرج؟ قال لا يرزقه إلا الشهداء. قلت رحمك الله قد أحسنت إلي فإن رأيت أن تخبرني ما

هذا الدعاء وما فضله؟ قال من دعا به مساء وصباحا هدمت ذنوبه ودام سروره ومحيت خطاياه واستجيب دعاؤه وبسط له رزقه وأعطى أمله وأعين على عدوه وكتب عند الله صديقا ولا يموت إلا شهيدا: تقول اللهم كما لطفت في عظمتك دون اللطفاء، وعلوت بعظمتك على العظماء وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك، وكان وساوس الصدور كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر في علمك، وانقاد كل شيء لعظمتك وخضع كل ذي سلطان لسلطانك وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك، اجعل لي من كل هم أمسيت فيه فرجا ومخرجا. اللهم إن عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي وسترك على قبيح عملي أطمعني أن أسألك مالا أستوجبه مما قصرت فيه، أدعوك آمنا وأسألك مستأنسا وإنك المحسن إلى وأنا المسيء إلى نفسي فيما بيني وبينك، تتودد إلى بنعمك وأتبغض إليك بالمعاصي، ولكن الثقة بك حملتني على الجراءة عليك، فعد بفضلك وإحسانك علي، إنك أنت التواب الرحيم. قال فأخذته فصيرته في جيبي ثم لم يكن لي هم غير أمير المؤمنين، فدخلت فسلمت عليه فرفع رأسه فنظر إلي وتبسم ثم قال: ويلك وتحسن السحر؟ فقلت لا والله يا أمير المؤمنين، ثم قصصت عليه أمري مع الشيخ، فقال هات الرق الذي أعطاك؟ ثم جعل يبكي وقال وقد نجوت وأمر بنسخه، وأعطاني عشرة آلاف ثم قال أتعرفه؟ قلت لا قال ذلك الخضر عليه السلام.

كتاب الحلال والحرام

وهو الكتاب الرابع من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد فقد قال صلى الله عليه وسلم "طلب الحلال فريضة على كل مسلم"، وهذه الفريضة من بين سائر الفرائض أعصاها على العقول فهما وأثقلها على الجوارح فعلا، ولذلك اندرس بالكلية علما وعملا، وصار غموض علمه سببا لاندراس عمله. إذ ظن الجهال أن الحلال مفقود وأن السبيل دون الوصول إليه مسدود وأنه لم يبق من الطيبات إلا الماء الفرات والحشيش النابت في الموات، وما عداه فقد أخبثته الأيدي العادية وأفسدته المعاملات الفاسدة. وإذا تعذرت القناعة بالحشيش من النبات لم يبق وجه سوى الاتساع في المحرمات فرفضوا هذا القطب من الدين أصلا، ولم يدركوا بين الأموال فرقا وفصلا وهيهات هيهات، فالحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات ولا تزال هذه الثلاثة مقترنات كيفما تقلبت الحالات.

الباب الأول في فضيلة الحلال ومذمة الحرام وبيان أصناف الحلال ودرجاته وأصناف الحرام ودرجات الورع فيه

فضيلة الحلال ومذمة الحرام: قال الله تعالى{كلوا من الطيبات واعملوا صالحا}، **أمر بالأكل من الطيبات قبل العمل،** وقيل إن المراد به الحلال. وقال تعالى{ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل}، وقال تعالى{إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما}، الآية؛ وقال تعالى{يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين}، ثم قال{فإن لم تفعلوا

فأذنوا بحرب من الله ورسوله}، ثم قال{وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم}، ثم قال{ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}. جعل آكل الربا أول الأمر مؤذنا بمحاربة الله وفي آخره متعرضا للنار. والآيات الواردة في الحلال والحرام لا تحصى وقال صلى الله عليه وسلم "**من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد في سبيل الله، ومن طلب الدنيا حلالا في عفاف كان في درجة الشهداء**". ولما ذكر صلى الله عليه وسلم الحريص على الدنيا قال "**رب أشعث أغبر مشرد في الأسفار مطعمه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام يرفع يديه فيقول يا رب يا رب فأنى يستجاب لذلك**" وقال صلى الله عليه وسلم "كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به". وأما الآثار فقد ورد أن الصديق رضي الله عنه شرب لبنا من كسب عبده ثم سأل عبده فقال تكهنت لقوم فأعطوني فأدخل أصابعه في فيه وجعل يقيء حتى ظننت أن نفسه ستخرج، ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما حملت العروق وخالط الأمعاء. وكذلك شرب عمر رضي الله عنه من لبن إبل الصدقة غلطا فأدخل أصبعه وتقيأ. وقالت عائشة رضي الله عنها إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة هو الورع. وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا وصمتم حتى تكونوا كالأوتار لم يقبل ذلك منكم إلا بورع حاجز. وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: ما أدرك من أدرك إلا من كان يعقل ما يدخل جوفه. وقال الفضيل: من عرف ما يدخل جوفه كتبه الله صديقا فانظر عند من تفطر يا مسكين. وقال سفيان الثوري رضي الله عنه: **من أنفق من الحرام في طاعة الله كان كمن طهر الثوب النجس بالبول، والثوب النجس لا يطهره إلا الماء و الذنب لا يكفره إلا الحلال**. وقال يحيى بن معاذ: الطاعة خزانة من خزائن الله إلا أن مفتاحها الدعاء **وأسنانه لقم الحلال**. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يقبل الله صلاة امرىء في جوفه حرام. وقال سهل التسترى: لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يكون فيه أربع خصال: أداء الفرائض بالسنة وأكل الحلال بالورع واجتناب النهي من الظاهر والباطن و الصبر على ذلك إلى الموت. وقال: من أحب أن يكاشف بآيات الصديقين فلا يأكل إلا حلالا ولا يعمل إلا في سنة أو ضرورة. وقال ابن المبارك: رد درهم من شبهة أحب إلي من أن أتصدق بمائة ألف درهم ومائة ألف ومائة ألف حتى بلغ إلى ستمائة ألف وقال سهل رضي الله عنه: من أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى، علم أو لم يعلم، ومن كانت طعمته حلالا أطاعته جوارحه ووفقت للخيرات. وفي الأخبار المشهورة عن علي عليه السلام وغيره إن الدنيا حلالها حساب وحرامها عذاب وزاد آخرون وشبهتها عتاب. وقد كان بين أحمد بن حنبل ويحيى بن معين صحبة طويلة فهجره أحمد إذ سمعه يقول إني لا أسأل أحدا شيئا ولو أعطاني الشيطان شيئا لأكلته حتى اعتذر يحيى وقال كنت أمزح، فقال: تمزح بالدين أما علمت أن الأكل من الدين قدمه الله تعالى على العمل الصالح فقال كلوا من الطيبات واعملوا صالحا. وهكذا كانوا يحترزون من الشبهات.

أصناف الحلال ومداخله: اعلم أن تفصيل الحلال و الحرام إنما يتولى بيانه كتب الفقه ويستغني المريد عن تطويله بأن يكون له طعمة معينة يعرف بالفتوى حلها لا يأكل من غيرها، فأما من يتوسع في الأكل من وجوه متفرقة فيفتقر إلى علم الحلال والحرام كله، ونحن الآن نشير إلى مجامعه في سياق تقسيم وهو أن المال إنما يحرم إما لمعنى في عينه أو لخلل في جهة اكتسابه.

القسم الأول الحرام لصفة في عينه كالخمر و الخنزير وغيرهما، وتفصيله أن الأعيان المأكولة على وجه الأرض لا تعدو ثلاثة أقسام، فإنها إما أن تكون من المعادن كالملح و الطين وغيرهما، أو من النبات، أو من الحيوانات. أما المعادن فهي أجزاء الأرض وجميع ما يخرج منها فلا يحرم أكله إلا من حيث أنه يضر بالآكل وفي بعضها ما يجري مجرى السم، والخبز لو كان مضرا لحرم أكله، والطين الذي يعتاد أكله لا يحرم إلا من حيث الضرر. وفائدة قولنا أنه لا يحرم مع أنه لا يؤكل أنه لو وقع

شيء منها في مرقة أو طعام مائع لم يصر به محرما. وأما النبات فلا يحرم منه إلا ما يزيل العقل أو يزيل الحياة أو الصحة، فمزيل العقل البنج و الخمر وسائر المسكرات، ومزيل الحياة السموم، ومزيل الصحة الأدوية في غير وقتها؛ وكأن مجموع هذا يرجع إلى الضرر إلا الخمر و المسكرات، فإن الذي لا يسكر منها أيضا حرام مع قلته لعينه ولصفته وهي الشدة المطربة؛ وأما السم فإذا خرج عن كونه مضرا لقلته أو لعجنه بغيره فلا يحرم. وأما الحيوانات فتنقسم إلى ما يؤكل وإلى ما لا يؤكل، والنظر يطول في تفصيله لا سيما في الطيور الغريبة وحيوانات البر والبحر، وما يحل أكله منها فإنما يحل إذا ذبح ذبحا شرعيا روعي فيه شروط الذابح والآلة والذبح، وما لم يُذبح ذبحا شرعيا أو مات فهو حرام، ولا يحل إلا ميتتان السمك والجراد، وفي معناهما ما يستحيل من الأطعمة كدود التفاح والخل والجبن فإن الاحتراز منهما غير ممكن، فأما إذا أفردت وأكلت فحكمها حكم الذباب والخنفساء والعقرب. **وكل ما ليس له نفس سائلة لا سبب في تحريمها إلا الاستقذار ولو لم يكن لكان لا يُكره**. وليست الكراهة لنجاستها فإن الصحيح أنها لا تنجس بالموت إذ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يمقل الذباب في الطعام إذا وقع فيه، وهذا يدل على أن تحريمه للاستقذار. ولذلك نقول لو وقع جزء من آدمي ميت في قدر ولو وزن دانق، حرم الكل لا لنجاسته، فإن الصحيح أن الآدمي لا ينجس بالموت، ولكن لأن أكله محرم احتراما لا استقذارا. وأما الحيوانات المأكولة إذا ذبحت بشرط الشرع فلا تحل جميع أجزائها، بل يحرم منها الدم والفرث وكل ما يقضي بنجاسته منها. بل تناول النجاسة مطلقا محرم، ولكن ليس في الأعيان شيء محرم نجس إلا من الحيوانات، ومهما وقعت قطرة من النجاسة أو جزء من نجاسة جامدة في مرقة أو طعام أو دهن حرم أكل جميعه، ولا يحرم الانتفاع به لغير الأكل فيجوز الاستصباح بالدهن النجس وكذا طلاء السفن والحيوانات وغيرها. فهذه مجامع ما يحرم لصفة في ذاته.

القسم الثاني ما يحرم لخلل في جهة إثبات اليد عليه: وفيه يتسع النظر فنقول أخذ المال إما أن يكون باختيار المالك أو بغير اختياره. فالذي يكون بغير اختياره كالإرث، والذي يكون باختياره إما أن لا يكون من مالك كنيل المعادن أو يكون من مالك. والذي أُخذ من مالك فإما أن يؤخذ قهرا أو يؤخذ تراضيا، والمأخوذ قهرا إما أن يكون لسقوط عصمة المالك كالغنائم أو لاستحقاق الأخذ كزكاة الممتنعين والنفقات الواجبة عليهم. والمأخوذ تراضيا إما أن يؤخذ بعوض كالبيع والصداق والأجرة، وإما أن يؤخذ بغير عوض كالهبة و الوصية. فيحصل من هذا السياق ستة أقسام: الأول ما يؤخذ من غير مالك كنيل المعادن وإحياء الموات والاصطياد والاحتطاب والاستقاء من الأنهار والاحتشاش، فهذا حلال بشرط أن لا يكون المأخوذ مختصا بذي حرمة من الآدميين، فإذا انفك من الاختصاصات ملكها آخذها. الثاني المأخوذة قهرا ممن لا حرمة له، وهو الفيء والغنيمة و سائر أموال الكفار والمحاربين، وذلك حلال للمسلمين إذا أخرجوا منها الخمس وقسموها بين المستحقين بالعدل ولم يأخذوها من كافر له حرمة وأمان وعهد. الثالث ما يؤخذ قهرا باستحقاق عند امتناع من وجب عليه فيؤخذ دون رضاه، وذلك حلال إذا تم سبب الاستحقاق وتم وصف المستحق الذي به استحقاقه واقتصر على القدر المستحق واستوفاه ممن يملك الاستيفاء من قاض أو سلطان أو مستحق، إذ فيها النظر في صفة المستحقين للزكاة والوقف والنفقة وغيرها من الحقوق فإذا استوفيت شرائطها كان المأخوذ حلالا. الرابع ما يؤخذ تراضيا بمعاوضه، وذلك حلال إذا روعي شرط العوضين وشرط العاقدين وشرط اللفظين، أعني الإيجاب والقبول مع ما تعبد الشرع به من اجتناب الشروط المفسدة. الخامس ما يؤخذ عن رضا من غير عوض، وهو حلال إذا روعى فيه شرط المعقود عليه وشرط العاقدين وشرط العقد ولم يؤد إلى ضرر بوارث أو غيره. السادس ما يحصل بغير اختيار، كالميراث وهو حلال إذا كان الموروث قد اكتسب

المال من بعض الجهات الخمس على وجه حلال، ثم كان ذلك بعد قضاء الدين وتنفيذ الوصايا وتعديل القسمة بين الورثة وإخراج الزكاة و الحج و الكفارة إن كان واجبا. فهذه مجامع مداخل الحلال والحرام أومأنا إلى جملتها ليعلم المريد أنه إن كانت طعمته متفرقة لا من جهة معينة فلا يستغنى عن علم هذه الأمور، فكل ما يأكله من جهة من الجهات ينبغي أن يستفتي فيه أهل العلم ولا يقدم عليه بالجهل، فإنه كما يقال للعالم لم خالفت علمك يقال للجاهل لم لازمت جهلك ولم تتعلم بعد أن قيل لك طلب العلم فريضة على كل مسلم.

درجات الحلال والحرام: اعلم أن الحرام كله خبيث لكن بعضه أخبث من بعض، والحلال كله طيب ولكن بعضه أطيب من بعض وأصفى من بعض. نقول الورع عن الحرام على أربع درجات الأولى، ورع العدول وهو الورع عن كل ما تحرمه فتاوى الفقهاء. الثانية ورع الصالحين وهو الامتناع عما يتطرق إليه احتمال التحريم، ولكن المفتي يرخص في التناول بناء على الظاهر، فهو من مواقع الشبهة على الجملة فلنسم التحرج عن ذلك ورع الصالحين. والثالثة مالا تحرمه الفتوى ولا شبهة في حله ولكن يُخاف منه أداؤه إلى محرم وهو ترك ما لا بأس به مخافة مما به بأس، وهذا ورع المتقين. قال صلى الله عليه وسلم "لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة ما به بأس". الرابعة ما لا بأس به أصلا ولا يُخاف منه أن يؤدي إلى ما به بأس، ولكنه يُتناول لغير الله وعلى غير نية التقوى به على عبادة الله، أو تتطرق إلى أسبابه المسهلة له كراهية أو معصية والامتناع منه ورع الصديقين. وأما الحرام الذي ذكرناه في الدرجة الأولى هو الذي يشترط التورع عنه في العدالة واطراح سمة الفسق فهو أيضا على درجات في الخبث. فالمأخوذ بعقد فاسد كالمعاطاة مثلا فيما لا يجوز فيه المعاطاة حرام ولكن ليس في درجة المغصوب على سبيل القهر، بل المغصوب أغلظ إذ فيه ترك طريق الشرع في الاكتساب وإيذاء الغير، وليس في المعاطاة إيذاء وإنما فيه ترك طريق التعبد فقط، ثم ترك طريق التعبد بالمعاطاة أهون من تركه بالربا. وهذا التفاوت يدرك بتشديد الشرع ووعيده وتأكيده في بعض المناهى. بل المأخوذ ظلما من فقير أو صالح أو من يتيم أخبث وأعظم من المأخوذ من قوي أو غني أو فاسق، لأن درجات الإيذاء تختلف باختلاف درجات المؤذى... وقال عمر رضي الله عنه كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام، وقيل إن هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال أبو الدرداء: إن من تمام التقوى أن يتقى العبد في مثال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما حتى يكون حجابا بينه وبين النار. ولهذا كان لبعضهم مائة درهم على إنسان فحملها إليه فأخذ تسعة وتسعين وتورع عن استيفاء الكل خيفة الزيادة، وكان بعضهم يتحرز فكل ما يستوفيه يأخذه بنقصان حبة، وما يعطيه يوفيه بزيادة حبة، ليكون ذلك حاجزا من النار. ومن هذه الدرجة الاحتراز عما يتسامح به الناس فإن ذلك حلال في الفتوى، ولكن يُخاف من فتح بابه أن ينجر إلى غيره وتألف النفس الاسترسال وتترك الورع. ومن ذلك ما روى أن عمر رضي الله عنه وصله مسك من البحرين فقال وددت لو أن امرأة وزنت حتى أقسمه بين المسلمين فقالت امرأته عاتكة أنا أجيد الوزن، فسكت عنها، ثم أعاد القول فأعادت الجواب، فقال لا أحببت أن تضعيه بكفة ثم تقولين فيها أثر الغبار فتمسحين بها عنقك فأصيب بذلك فضلا على المسلمين. وكان يوزن بين يدي عمر بن عبد العزيز مسك للمسلمين فأخذ بأنفه حتى لا تصيبه الرائحة وقال وهل ينتفع منه إلا بريحه لما استبعد ذلك منه. وروى سليمان التيمي عن نعيمة العطارة قالت كان عمر رضي الله عنه يدفع إلى امرأته طيبا من طيب المسلمين لتبيعه فباعتني طيبا فجعلت تقوم وتزيد وتنقص وتكسر بأسنانها فتعلق بأصبعها شيء منه فقالت به هكذا بأصبعها ثم مسحت به خمارها فدخل عمر رضي الله عنه فقال ما هذه الرائحة فأخبرته فقال طيب المسلمين تأخذينه فانتزع الخمار من رأسها وأخذ

جرة من الماء فجعل يصب على الخمار ثم يدلكه في التراب ثم يشمه ثم يصب الماء ثم يدلكه في التراب ويشمه حتى لم يبق له ريح، قالت ثم أتيتها مرة أخرى فلما وزنت علق منه شيء بأصبعها فأدخلت أصبعها في فيها ثم مسحت به التراب. فهذا من عمر رضي الله عنه ورع التقوى لخوف أداء ذلك إلى غيره، وإلا فغسل الخمار ما كان يعيد الطيب إلى المسلمين ولكن أتلفه عليها زجرا وردعا واتقاء من أن يتعدى الأمر إلى غيره. وهذا من ترك ما لا بأس به مخافة مما به البأس، أي مخافة من أن يفضى إليه، وأكثر المباحات داعية إلى المحظورات. ولا شك في أن من يتورع عما يوصل إليه أو يستعان عليه بمعصية ليتورع عما يقترن بسبب اكتسابه معصية أو كراهية. والتحقيق فيه أن الورع له أول وهو الامتناع عما حرمته الفتوى وهو ورع العدول، وله غاية وهو ورع الصديقين، وذلك هو الامتناع من كل ما ليس له مما أخذ بشهوة أو توصل إليه بمكروه أو اتصل بسببه مكروه، وبينهما درجات في الاحتياط. فكلما كان العبد أشد تشديدا على نفسه كان أخف ظهرا يوم القيامة وأسرع جوازا على الصراط وأبعد عن أن تترجح كفه سيئاته على كفة حسناته. وتتفاوت المنازل في الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات في الورع، كما تتفاوت درجات النار في حق الظلمة بحسب تفاوت درجات الحرام في الخبث. وإذا علمت حقيقة الأمر فإليك الخيار فإن شئت فاستكثر من الاحتياط وإن شئت فرخص، فلنفسك تحتاط وعلى نفسك ترخص والسلام.

الباب الثاني في مراتب الشبهات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينهن ومن وقع في الشبهات واقع الحرام كالراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه". فهذا الحديث نص في إثبات الأقسام الثلاثة، والمشكل منها القسم المتوسط الذي لا يعرفه كثير من الناس وهو الشبهة، فلا بد من بيانها وكشف الغطاء عنها. فنقول الحلال المطلق هو الذي خلا عن ذاته الصفات الموجبة للتحريم في عينه وانحل عن أسبابه ما تطرق إليه تحريم أو كراهية، ومثاله الماء الذي يأخذه الإنسان من المطر قبل أن يقع على ملك أحد يكون هو واقفا عند جمعه وأخذه من الهواء في ملك نفسه أو في أرض مباحة، والحرام المحض هو ما فيه صفة محرمة لا يشك فيها كالشدة المطربة في الخمر والنجاسة في البول، أو حصل بسبب منهى عنه قطعا كالمحصل بالظلم والربا ونظائره. وإنما الشبهة نعني بها ما اشتبه علينا أمره بأن تعارض لنا فيه اعتقادان صدرا عن سببين مقتضيين للاعتقادين. ومثارات الشبهة خمسة، المثار الأول الشك في السبب المحلل والمحرم، وذلك لا يخلو إما أن يكون متعادلا أو غلب أحد الاحتمالين، فإن تعادل الاحتمالان كان الحكم لما عُرف قبله فيستصحب ولا يترك بالشكوك وإن غلب أحد الاحتمالين عليه بأن صدر عن دلالة معتبرة كان الحكم للغالب. القسم الثاني أن يعرف الحل ويشك في المحرم فالأصل الحل وله الحكم. القسم الثالث أن يكون الأصل التحريم ولكن طرأ ما أوجب تحليله بظن غالب فهو مشكوك فيه والغالب حله فهذا يُنظر فيه، فإن استند غلبة الظن إلى سبب معتبر شرعا فالذي نختاره فيه أنه يحل واجتنابه من الورع. القسم الرابع أن يكون الحل معلوما ولكن يغلب على الظن طريان محرم بسبب معتبر في غلبة الظن شرعا فيرفع الاستصحاب ويقضى بالتحريم إذ بان لنا أن الاستصحاب ضعيف ولا يبقى له حكم مع غالب الظن. وكل ما حكمنا في هذه الأقسام الأربعة بحله فهو حلال في الدرجة الأولى، والاحتياط تركه، فالمقدِم عليه لا يكون من زمرة المتقين والصالحين بل من زمرة العدول الذين لا يقضى في فتوى الشرع بفسقهم وعصيانهم واستحقاقهم العقوبة إلا ما ألحقناه برتبة الوسواس، فإن الاحتراز عنه ليس من الورع أصلا. المثار الثاني للشبهة شك منشؤه الاختلاط، وذلك بأن يختلط الحرام بالحلال ويشتبه الأمر ولا يتميز. والذي يختلط بالاستيهام فلا يخلو إما أن يكون مما

يقصد عينه كالعروض أو لا يقصد كالنقود. القسم الثاني حرام محصور بحلال غير محصور كما لو علم أن مال الدنيا خالطه حرام قطعا فلا يلزمه ترك الشراء والأكل فإن ذلك حرج وما في الدين من حرج. وبالجملة إنما تنفك الدنيا عن الحرام إذا عُصم الخلق كلهم عن المعاصي وهو محال، وإذا لم يُشترط هذا في الدنيا لم يشترط أيضا في بلد إلا إذا وقع بين جماعة محصورين. بل اجتناب هذا من ورع الموسوسين إذا لم يُنقل ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من الصحابة ولا يُتصور الوفاء به في ملة من الملل ولا في عصر من الأعصار. القسم الثالث أن يختلط حرام لا يحصر بحلال لا يحصر كحكم الأموال في زماننا. هذا فالذي يأخذ الأحكام من الصور قد يظن أن نسبة غير المحصور إلى غير المحصور كنسبة المحصور إلى المحصور، وقد حكمنا ثم بالتحريم فلنحكم هنا به، والذي نختاره خلاف ذلك وهو أنه لا يحرم بهذا الاختلاط أن يتناول شيء بعينه احتمل انه حرام وأنه حلال إلا أن يقترن بتلك العين علامة تدل على أنه من الحرام، فإن لم يكن في العين علامة تدل على أنه من الحرام فتركه ورع وأخذه حلال لا يفسق به آكله. ومن أوجب ما لم يوجبه السلف الصالح وزعم أنه تفطن من الشر ما لم يتفطنوا له فهو موسوس مختل العقل، ولو جاز أن يزاد عليهم في أمثال هذا لجاز مخالفتهم في مسائل لا مستند فيها سوى اتفاقهم كقولهم إن الجدة كالأم في التحريم وابن الابن كالابن وشعر الخنزير وشحمه كاللحم المذكور تحريمه في القرآن والربا جار فيما عدا الأشياء الستة، وذلك محال فإنهم أولى بفهم الشرع من غيرهم. وأما القياس فهو أنه لو فتح هذا الباب لانسد باب جميع التصرفات وخرب العالم، إذ الفسق يغلب على الناس ويتساهلون بسببه في شروط الشرع في العقود ويؤدي ذلك لا محالة إلى الاختلاط. بل **تمام الورع** الاقتصار في المباح على قدر الحاجة وترك التوسع في الدنيا بالكلية وذلك طريق الآخرة. ونحن الآن نتكلم في الفقه المنوط بمصالح الخلق، وفتوى الظاهر له حكم ومنهاج على حسب مقتضى المصالح، وطريق الدين الذي لا يقدر على سلوكه إلا الآحاد ولو اشتغل الخلق كلهم به لبطل النظام وخرب العالم، فإن ذلك طلب ملك كبير في الآخرة ولو اشتغل كل الخلق بطلب ملك الدنيا وتركوا الحرف الدنيئة والصناعات الخسيسة لبطل النظام... والورع حسن والمبالغة فيه أحسن ولكن إلى حد معلوم فقد قال صلى الله عليه وسلم: "هلك المتنطعون"، فليحذر من أمثال هذه المبالغات فإنها وإن كانت لا تضر صاحبها، ربما أوهم عند الغير أن مثل ذلك مهم ثم يعجز عما هو أيسر منه فيترك أصل الورع، وهو مستند أكثر الناس في زماننا هذا إذ ضيق عليهم الطريق فأيسوا عن القيام به فأطرحوه. فكما أن الموسوس في الطهارة قد يعجز عن الطهارة فيتركها، فكذا بعض الموسوسين في الحلال سبق إلى أوهامهم أن مال الدنيا كله حرام فتوسعوا فتركوا التمييز وهو عين الضلال... وإنما الذي ذكرناه في النهي عن المبالغة أردنا به أن القلب الصافي المعتدل هو الذي لا يجد حزاز في مثل تلك الأمور. فإن مال قلب موسوس عن الاعتدال ووجد الحزازة فأقدم مع ما يجد في قلبه فذلك يضره لأنه مأخوذ في حق نفسه بينه وبين الله تعالى بفتوى قلبه. المثار الرابع الاختلاف في الأدلة، فإن ذلك كالاختلاف في السبب، لأن السبب سبب لحكم الحل والحرمة، والدليل سبب لمعرفة الحل والحرمة، فهو السبب في حق المعرفة. وما لم يثبت في معرفة الغير فلا فائدة لثبوته في نفسه وإن جرى سببه في علم الله؛ وهو إما أن يكون لتعارض أدلة الشرع أو لتعارض العلامات الدالة أو لتعارض التشابه. الثالث: في البحث والسؤال والهجوم والإهمال ومظانها: اعلم أن كل من قدم إليك طعاما أو هدية أو أردت أن تشتري منه أو تتهب فليس لك أن تفتش عنه وتسأل وتقول: هذا مما لا أتحقق حله فلا آخذه بل أفتش عنه، وليس لك أيضا أن تترك البحث فتأخذ كل ما لا تتيقن تحريمه. فإذا دخلت قرية لا تعرفها فرأيت رجلا لا تعرف من حاله شيئا ولا عليه علامة تنسبه إلى أهل صلاح أو أهل فساد فهو مجهول، وإذا دخلت بلدة

غريبا ودخلت سوقا ووجدت رجلا خبازا أو قصابا أو غيره ولا علامة تدل على كونه مريبا أو خائنا ولا ما يدل على نفيه فهو مجهول، ولا يُدرى حاله ولا نقول إنه مشكوك فيه لأن الشك عبارة عن اعتقادين متقابلين لهما سببان متقابلان، وقد عرفت مما سبق أن الورع ترك ما لا يُدرى؛ قال يوسف بن أسباط منذ ثلاثين سنة ما حاك في قلبي شيء إلا تركته، وتكلم جماعة في أشق الأعمال فقالوا هو الورع، فقال لهم حسان بن أبي سنان ما شيء عندي أسهل من الورع، إذا حاك في صدري شيء تركته؛ فهذا شرط الورع. وإنما نذكر الآن حكم الظاهر فنقول حكم هذه الحالة أن المجهول إن قدم إليك طعاما أو حمل إليك هدية أو أردت أن تشتري من دكانه شيئا، فلا يلزمك السؤال بل يده وكونه مسلما دلالتان كافيتان في الهجوم على أخذه، وليس لك أن تقول الفساد والظلم غالب على الناس، فهذه وسوسة وسوء ظن بهذا المسلم بعينه، وإن بعض الظن إثم، وهذا المسلم يستحق بإسلامه عليك أن لا تسيء الظن به، فإن أسأت الظن به في عينه لأنك رأيت فسادا من غيره فقد جنيت عليه وأثمت به في الحال نقدا من غير شك. ويدل عليه أنا نعلم أن الصحابة رضي الله عنهم في غزواتهم وأسفارهم كانوا ينزلون في القرى ولا يردون القرى ويدخلون البلاد ولا يحترزون من الأسواق، وكان الحرام أيضا موجودا في زمانهم، وما نقل عنهم سؤال إلا عن ريبة، إذ كان صلى الله عليه وسلم لا يسأل عن كل ما يحمل إليه، بل سأل في أول قدومه إلى المدينة عما يحمل إليه أصدقة أم هدية؟ لأن قرينة الحال تدل وهو دخول المهاجرين المدينة وهم فقراء فغلب على الظن أن ما يحمل إليهم بطريق الصدقة، وكان يدعى إلى الضيافات فيجيب ولا يسأل أصدقة أم لا. وكل من وجد ضيافة عند رجل مجهول لم يكن عاصيا بإجابته من غير تفتيش.

كتاب ذم الكبر والعجب

وهو الكتاب التاسع من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني فيهما قصمته"، وقال صلى الله عليه وسلم: "ثلاث مهلكات، شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه". فالكبر والعجب داءان مهلكان، والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان وهما عند الله ممقوتان بغيضان. وإذا كان القصد في هذا الربع من كتاب إحياء علوم الدين شرح المهلكات، وجب إيضاح الكِبر والعجب فإنهما من قبائح المرديات، ونحن نستقضي بيانهما من الكتاب في شطرين، شطر في الكبر، وشطر في العجب.

بيان ذم الكِبر: قد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه وذم كل جبار متكبر فقال تعالى:{سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق}، وقال عز وجل:{كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار}، وقال تعالى: {واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد}، وقال تعالى:{إنه لا يحب المستكبرين}، وقال تعالى:{لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا

عتوا كبيرا}، وقال تعالى: {إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين}. وذم الكبر في القرآن كثير وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان". وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: التقى عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر على الصفا فتواقفا، فمضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يبكي، فقالوا ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ فقال هذا، يعني عبد الله بن عمرو، زعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله في النار على وجهه". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يُكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم من العذاب"، وقال صلى الله عليه وسلم: "إن أحبكم إلينا وأقربكم منا في الآخرة أحاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إلينا وأبعدكم منا الثرثارون المتشدقون المتفيهقون. قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون، قال: المتكبرون". وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره فجاء يوما ومصعب ماد رجليه فلم يقبضهما وقعد الأحنف فزحمه بعض الزحمة فرأى أثر ذلك في وجهه فقال: عجبا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين. وقال الحسن: **العجب من ابن آدم يغسل الخرء بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يعارض جبار السموات**. وقد قال محمد بن الحسين بن علي: ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك أو كثر.

بيان ذل الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجر الثياب. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطرا**"، وقال صلى الله عليه وسلم: "**من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة**". وقال زيد بن أسلم دخلت على ابن عمر فمر به عبد الله ابن واقد وعليه ثوب جديد فسمعته يقول: أي بني ارفع إزارك فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا ينظر الله إلى من جر إزاره خيلاء. وقال صلى الله عليه وسلم: "**من تعظم في نفسه واختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان**". وإذ قد ذكرنا ذم الكبر والاختيال فلنذكر فضيلة التواضع والله تعالى أعلم.

بيان فضيلة التواضع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**ما زاد عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**"، وقال صلى الله عليه وسلم: "طوبى لمن تواضع في غير مسكنة، وأنفق مالا جمعه في غير معصية، ورحم أهل الذل والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة". وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: "إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعاظم على خلقي، وألزم قلبه خوفي، وقطع نهاره بذكري، وكف نفسه عن الشهوات من أجلي". وقال المسيح عليه السلام: "طوبى للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة، طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة، طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة". وقال جرير بن عبد الله انتهيت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بنطع (بساط من الجلد، كثيرا ما يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل (المعجم الوجيز)) له وقد جاوزت الشمس النطع فسويته عليه، ثم إن الرجل استيقظ فإذا هو سلمان الفارسي فذكرت له ما صنعت فقال لي: يا جرير تواضع لله في الدنيا فإنه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة، يا جرير أتدري ما ظلمة النار يوم القيامة؟ قلت لا، قال: إنه ظلم الناس بعضهم في الدنيا. وقالت عائشة رضي الله عنها: إنكم لتغفلون عن أفضل العبادات: التواضع. وقال يوسف بن أسباط: يجزي قليل الورع من كثير العمل، ويجزي قليل التواضع من كثير الاجتهاد. وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع ما هو فقال: أن تخضع

للحق وتنقاد له، ولو سمعته من صبي قبلته، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته. وقال ابن المبارك: رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تُعلِمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا حتى تُعلِمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل. وقيل أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتممها عليك. وقال كعب: ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا ورُفع بها درجة في الآخرة، وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقا من النار، يعذبه إن شاء الله أو يتجاوز عنه. وقيل لعبد الملك بن مروان أي الرجال أفضل؟ قال: من تواضع عن قدرة، وزهد عن رغبة، وترك النصرة عن قوة.

ويقال أرفع ما يكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه، وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه. وقال الفضيل: من أحب الرياسة لم يُفلح أبدا. ويقال من يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب.

وقال يحيى بن خالد البرمكي: الشريف إذا تنسك تواضع، والسفيه إذا تنسك تعاظم. ويقال: التواضع في الخَلق كلهم حسن وفي الأغنياء أحسن، والتكبر في الخلق كلهم قبيح وفي الفقراء أقبح. ويقال: لا عز إلا لمن تذلل لله عز وجل، ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عز وجل، ولا أمن إلا لمن خاف الله عز وجل، ولا ربح إلا لمن ابتاع نفسه من الله عز وجل. وقال أبو علي الجوزجاي: النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة، وإذا أراد الله تعالى به خيرا لطف به في ذلك، فإذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع من نصرة الله تعالى، وإذا هاجت نار الحسد في نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عز وجل، وإذا هاجت في نفسه نار الحرص أدركتها القناعة مع عون الله عز وجل.

بيان حقيقة الكِبر وآفته

اعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر، فالباطن هو خُلق في النفس، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح. وإسم الكبر بالخُلق الباطن أحق، وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق. وخُلق الكبر موجب للأعمال، ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال تكبر، وإذا لم يظهر يقال في نفسه كِبر. فالأصل هو الخلق الذي في النفس، وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المُتكبَّر عليه. فإن الكبر يستدعي متكبرا عليه ومتكبرا به، وبه ينفصل الكبر عن العجب، فإن العجب لا يستدعي غير المعجب، بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده تُصور أن يكون معجبا، ولا يتصور أن يكون متكبرا إلا أن يكون مع غيره، وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال فعند ذلك يكون متكبرا. ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبرا، فإنه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه. ولا يكفي أن يستحقر غيره فإنه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر، ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر، بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره. فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر. ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أعوذ بك من نفخة الكبرياء". وكذلك قال عمر أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا، للذي استأذنه أن يعظ بعد صلاة الصبح. فكأن الإنسان مهما رأى نفسه بهذه العين، وهو الاستعظام، كبر وانتفخ وتعزز. فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات، وتسمى أيضا عزة وتعظما. ولذلك قال ابن عباس في قوله تعالى:{إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه}، قال عظمة لم يبلغوها، ففسر الكبر بتلك العظمة.

والأعمال الصادرة عن خلق الكِبر كثيرة، وهي أكثر من أن تحصى فلا حاجة إلى تعدادها فإنها مشهورة. فهذا هو الكبر، وآفته عظيمة وغائلته هائلة، وفيه يهلك الخواص من الخَلْق، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلا عن عوام الخلق. وكيف لا تعظم آفته وقد قال صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر"، وإنما صار حجابا دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز، ولا يقدر على التواضع، وهو رأس أخلاق المتقين، وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز، ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز، ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز، ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز، ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز، ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العز، ولا معنى للتطويل فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ عزه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفا من أن يفوته عزه، فمِن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه. والأخلاق الذميمة متلازمة، والبعض منها داع إلى البعض لا محالة. **وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له**، وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والمتكبرين. قال الله تعالى:{والملائكة باسطو أيديهم} إلى قوله {وكنتم عن آياته تستكبرون}، ثم قال:{ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين}، ثم أخبر أن أشد أهل النار عذابا أشدهم عتيا على الله تعالى فقال:{ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا}، وقال تعالى:{فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون}، وقال عز وجل:{يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين}، وقال تعالى:{إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين}، وقال تعالى:{سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق}، قيل في التفسير سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم، وفي بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن الملكوت، وقال ابن جريج سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها.

الوجه الثاني الذي تعظم به رذيلة الكِبر أنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره، لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله وتشمر لجحده، ولذلك ترى المناظرين في مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين ثم إنهم يتجاحدون تجاحد المتكبرين، ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أنِف الآخر من قبوله، وتشمر لجحده واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس، وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين، إذ وصفهم الله تعالى فقال:{وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون}. فكل من يناظر للغلبة والإفحام لا ليغتنم الحق إذا ظفر به فقد شاركهم في هذا الخُلق. وكذلك يحمل ذلك على الأنفة من قبول الوعظ كما قال تعالى:{وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم}. وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قرأها فقال: إنا لله وأنا إليه راجعون. قام رجل يأمر بالمعروف فقُتِل، فقام آخر فقال يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، فقَتَل المتكبر الذي خالفه والذي أمره كبرا. وقال ابن مسعود **كفى بالرجل إثما إذا قيل له اتق الله قال عليك نفسك**. وإنما ضرب الله إبليس مثلا لهذا، وما حكاه من أحواله، إلا ليُعتبر به، فإنه قال أنا خير منه، وهذا الكبر بالنسب، لأنه قال {أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين}، فحمله ذلك على أن يمتنع من السجود الذي أمره الله تعالى به، وكان مبدؤه الكبر على آدم والحسد له، **فجره ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى فكان ذلك سبب هلاكه أبد الآباد**. فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة. ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم

الكبر بهاتين الآفتين إذ سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال يا رسول الله إني امرؤ قد حُبب إلي من الجمال ما ترى، أفمن الكبر هو؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس"، وقوله وغمص الناس أي ازدراهم واستحقرهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه، وهذه الآفة الأولى وسفه الحق هو رده وهي الآفة الثانية. فكل من رأى أنه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر إليه بعين الاستصغار، أو رد الحق وهو يعرفه، فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق، ومن أنف من أن يخضع لله تعالى ويتواضع لله بطاعته واتباع رسله فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسله.

بيان ما به التكبر

اعلم أنه لا يتكبر إلا متى استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال. وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي، فالديني هو العلم والعمل، والدنيوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار، فهذه سبعة أسباب. الأول **العلم** وما أسرع الكبر إلى العلماء، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "آفة العلم الخيلاء"، فلا يلبث العالم أن يتعزز بعزة العلم يستشعر في نفسه جمال العلم وكماله، ويستعظم نفسه ويستحقر الناس وينظر إليهم نظره إلى البهائم ويستجهلهم، ويتوقع أن يبدءوه بالسلام فإن بدأه واحد منهم بالسلام أو رد عليه ببشر أو قام له أو أجاب له دعوة، رأى ذلك صنيعة عنده ويدا عليه يلزمه شكرها، واعتقد أنه أكرمهم وفعل بهم ما لا يستحقون من مثله، وأنه ينبغي أن يرِّقوا له ويخدموه شكرا له على صنيعه. بل الغالب أنهم يبرونه فلا يبرهم، ويزورونه فلا يزورهم، ويعودونه فلا يعودهم، ويستخدم من خالطه منهم ويستسخره في حوائجه، فإن قصر فيه استنكره كأنهم عبيده أو أجراؤه، وكأن تعليمه العلم صنيعة منه إليهم ومعروف لديهم واستحقاق حق عليهم. هذا فيما يتعلق بالدنيا. أما في أمر الآخرة، فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم، وهذا بأن يُسمى جاهلا أولى من أن يسمى عالما. بل العلم الحقيقي هو الذي يعرف الإنسان به نفسه وربه وخطر الخاتمة وحجة الله على العلماء وعظم خطر العلم فيه. فالعلم من أعظم ما يُتكبر به، ولذلك قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم:{واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين}، وقال عز وجل:{ولو كنت فظا غليظ القلب لأنفضوا من حولك}، ووصف أولياءه فقال:{أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين}. وكذلك قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه العباس رضي الله عنه: "يكون قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يقولون قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا ومن أعلم منا. ثم التفت إلى أصحابه وقال: **أولئك منكم أيها الأمة، أولئك هم وقود النار**". ولذلك قال عمر رضي الله عنه: لا تكونوا جبابرة العلماء فلا يفي علمكم بجهلكم. ولذلك أستأذن تميم الداري عمر رضي الله عنه في القصص فأبى أن يأذن له وقال إنه الذبح، وصلى حذيفة بقوم فلما سلم من صلاته قال: لتلتمسن إماما غيري أو لتصلن وحدانا، فإني رأيت في نفسي أنه ليس في القوم أفضل مني. فإذا كان مثل حذيفة لا يسلَم فكيف يسلم الضعفاء من متأخري هذه الأمة؟ الثاني **العمل والعبادة** وليس يخلو عن رذيلة العز والكبر واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد، ويترشح الكبر منهم في الدين والدنيا. أما في الدنيا فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم، ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم والتوسع لهم في المجالس، وذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس في الحظوظ، إلى جميع ما ذكرناه في حق العلماء، وكأنهم يرون عبادتهم منَّة على الخلق. وأما في الدين فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجيا، وهو الهالك تحقيقا مهما رأى ذلك. قال صلى الله عليه وسلم: "إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم"، وإنما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله،

مغتر بالله آمن من مكره، غير خائف من سطوته، وكيف لا يخاف ويكفيه شرا احتقاره لغيره، قال صلى الله عليه وسلم: "كفى بالمرء شرا أن يحقر أخاه المسلم". وكم من الفرق بينه وبين من يحبه لله ويعظمه لعبادته ويستعظمه ويرجو له ما لا يرجوه لنفسه، فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه لله، فهم يتقربون إلى الله تعالى بالدنو منه، وهو يتمقت إلى الله بالتنزه والتباعد منهم، كأنه مترفع عن مجالستهم. فما أجدرهم إذ أحبوه لصلاحه أن ينقلهم الله إلى درجته في العمل، وما أجدره إذ ازدراهم بعينه أن ينقله الله إلى حد الإهمال.

والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات، **الدرجة الأولى** أن يكون الكبر مستقرا في قلبه، يرى نفسه خيرا من غيره إلا أنه يجتهد ويتواضع ويفعل فعل من يرى غيره خيرا من نفسه، وهذا قد رسخ في قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها بالكلية. **الثانية** أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع في المجالس، والتقدم على الأقران، وإظهار الإنكار على من يقصر في حقه، وأدنى ذلك في العالم أن يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم، وفي العابد أن يعبس وجهه ويقطب جبينه كأنه منزه عن الناس مستقذر لهم أو غضبان عليهم، وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب، ولا في الوجه حتى يعبس، ولا في الخد حتى يصعر، ولا في الرقبة حتى تطأطأ، ولا في الذيل حتى يُضم، إنما الورع في القلوب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "التقوى هاهنا وأشار إلى صدره"، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرم الخلق وأتقاهم، وكان أوسعهم خلقا وأكثرهم بشرا وتبسما وانبساطا. ولذلك قال الحارث بن جزء الزبيدي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم **يعجبني من القراء كل طليق مضحاك، فأما الذي تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس يمن عليك بعلمه، فلا أكثر الله في المسلمين مثله**، ولو كان الله سبحانه وتعالى يرضى ذلك لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم:{واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين}. وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر على شمائلهم فأحوالهم أخف حالا ممن هو في **الرتبة الثالثة** وهو الذي يظهر الكبر على لسانه حتى يدعوه إلى الدعوى والمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس وحكايات الأحوال والمقامات والتشمر لغلبة الغير في العلم والعمل، أما العابد فإنه يقول في معرض التفاخر لغيره من العباد من هو وما عمله ومن أين زهده، فيطول اللسان فيهم بالتنقص ثم يثني على نفسه، ويقول إني لم أفطر منذ كذا وكذا ولا أنام الليل وأختم القرآن في كل يوم، وفلان ينام سحرا ولا يكثر القراءة وما يجري مجراه، وأما العالم فإنه يتفاخر ويقول أنا متفنن في العلوم ومطلع على الحقائق، ورأيت من الشيوخ فلانا وفلانا، ومن أنت وما فضلك ومن لقيت وما الذي سمعت من الحديث، كل ذلك ليصغره ويعظم نفسه، وأما مباهاته فهو أنه يجتهد في المناظرة أن يغلب ولا يُغلب، ويسهر طول الليل والنهار في تحصيل علوم يتجمل بها في المحافل كالمناظرة والجدل وتحسين العبارة وتسجيع الألفاظ وحفظ العلوم الغريبة ليغرب بها على الأقران ويتعظم عليهم، ويحفظ الأحاديث ألفاظها وأسانيدها حتى يرد على من أخطأ فيها فيُظهر فضله ونقصان أقرانه، ويفرح مهما أخطأ واحد منهم ليرد عليه، ويسوء إذا أصاب وأحسن خيفة من أن يُرى أنه أعظم منه، فهذا كله أخلاق الكبر وآثاره التي يثمرها التعزز بالعلم والعمل.

الثالث: **التكبر بالحسب والنسب**، فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملا وعلما، وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له أموال وعبيد ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم، وثمرته على اللسان التفاخر به فيقول لغيره يا نبطي يا هندي ويا أرمني من أنت ومن أبوك، فأنا فلان ابن فلان، وأين لمثلك أن يكلمني أو ينظر إلي ومع مثلي تتكلم وما يجري مجراه، وذلك عرق دفين في النفس لا ينفك عنه نسيب وإن كان صالحا وعاقلا. إلا أنه قد لا يترشح

منه ذلك عند اعتدال الأحوال فإن غلبه غضب أطفأ ذلك نور بصيرته وترشح منه، كما روي عن أبي ذر أنه قال قاولت رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له يا ابن السوداء فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "**يا أبا ذر طف الصاع طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل**"، فقال أبو ذر رحمه الله فاضطجعت وقلت للرجل قم فطأ على خدي. فإنظر كيف نبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى لنفسه فضلا بكونه ابن بيضاء، وأن ذلك خطأ وجهل، وأنظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر بأخمص قدم من تكبر عليه، إذ عرف أن العز لا يقمعه إلا الذل. ومن ذلك ما روي أن رجلين تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما للآخر أنا فلان بن فلان فمن أنت لا أم لك. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "افتخر رجلان عند موسى عليه السلام فقال أحدهما أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام قل للذي افتخر بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم". **الرابع: التفاخر بالجمال**، وذلك أكثر ما يجري بين النساء ويدعو ذلك إلى التنقص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس. ومن ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت دخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت بيدي هكذا أي أنها قصيرة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم قد اغتبتها. وهذا منشؤه خفاء الكبر لأنها لو كانت أيضا قصيرة لما ذكرتها بالقصر، فكأنها أعجبت بقامتها واستقصرت المرأة في جنب نفسها فقالت ما قالت. **الخامس: الكبر بالمال**، وذلك يجري بين الملوك في خزائنهم، وبين التجار في بضائعهم، وبين الدهاقين في أراضيهم، وبين المتجملين في لباسهم وخيولهم ومراكبهم، فيستحقر الغني الفقير ويتكبر عليه، وكل ذلك لاستعظامه للغنى واستحقاره للفقر، وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى، وإليه الإشارة بقوله تعالى:{فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا}، حتى أجابه فقال:{إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربي أن يؤتيني خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا}، وكان ذلك منه تكبرا بالمال والولد، ثم بين الله عاقبة أمره بقوله:{يا ليتني لم أشرك بربي أحدا}. ومن ذلك تكبر قارون إذ قال تعالى إخبارا عن تكبره:{فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم}. **السادس: الكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على أهل الضعف**. **السابع: التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة والغلمان وبالعشيرة والأقارب والبنين**، ويجري ذلك بين الملوك في المكاثرة بالجنود، وبين العلماء في المكاثرة بالمستفيدين. وبالجملة فكل ما هو نعمة وأمكن أن يُعتقد كمالا وإن لم يكن في نفسه كمالا، أمكن أن يُتكبر به. فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض، فيتكبر من يدلي بشيء منه على من لا يدلي به، أو على من يدلي بما هو دونه في اعتقاده وربما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى، كالعالم الذي يتكبر بعلمه على من هو أعلم منه لظنه أنه هو الأعلم ولحسن اعتقاده في نفسه. نسأل الله العون بلطفه ورحمته إنه على كل شيء قدير.

بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر

اعلم أن التكبر يظهر في شمائل الرجل كصُعْر (صُعْرٌ: مائل العنق أو الوجه (المعجم العربي الأساسي)) في وجهه، ونظره شزرا، وإطراقه رأسه، وجلوسه متربعا أو متكئا، وفي أقواله حتى في صوته ونغمته وصيغته في الإيراد، ويظهر في مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته، وفي تعاطيه لأفعاله، وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله. فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله، ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض، فمنها التكبر بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه. وقد قال علي كرم الله وجهه: "من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام". وقال أنس: "لم يكن شخص

أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك". ومنها أن لا يمشي إلا ومعه غيره يمشي خلفه، قال أبو الدرداء: "لا يزال العبد يزداد من الله بعدا ما مُشي خلفه". وكان عبدالرحمن بن عوف لا يُعرف من عبيده إذ كان لا يتميز عنهم في صورة ظاهرة. ومشى قوم خلف الحسن البصري فمنعهم، وقال: ما يبقى هذا من قلب العبد. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأوقات يمشي مع بعض الأصحاب فيأمرهم بالتقدم ويمشي في غمارهم. ومنها أن لا يزور غيره، وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين وهو ضد التواضع. ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه. **وقال أنس كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث تشاء**. ومنها أن يتوقى من مجالسة المرضى والمعلولين ويتحاشى عنهم وهو الكبر. ومنها أن لا يتعاطى بيده شغلا في بيته والتواضع خلافه، روي أن عمر بن عبدالعزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ، فقال الضيف أقوم إلى المصباح فأصلحه، فقال ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، قال أفأنبه الغلام؟ فقال: هي أول نومة نامها. فقام وأخذ البطة وملأ المصباح زيتا. فقال الضيف قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين، فقال: ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ما نقص مني شيء، وخير الناس من كان عند الله متواضعا. ومنها أن لا يأخذ متاعه ويحمله إلى بيته وهو خلاف عادة المتواضعين، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك. وقال علي كرم الله وجهه: "لا يُنقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله". وعن الأصبغ بن نباتة قال كأني أنظر إلى عمر رضي الله عنه معلقا لحما في يده اليسرى وفي يده اليمنى الدرة يدور في الأسواق حتى دخل رحله. ومنها اللباس إذ يظهر به التكبر والتواضع، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "البذاذة من الإيمان"، فقال هارون سألت معنا عن البذاذة فقال: هو الدون من اللباس. وقال زيد بن وهب رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى السوق وبيده الدرة وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من أدم. وعوتب علي كرم الله وجهه في إزار مرقوع فقال: يقتدي به المؤمن ويخشع له القلب. ويروى أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان قبل أن يستخلف تُشترى له الحلة بألف دينار فيقول ما أجودها لولا خشونة فيها، فلما استُخلِف كان يُشترى له الثوب بخمسة دراهم فيقول: "ما أجوده لولا لينه"، فقيل له أين لباسك ومركبك وعطرك يا أمير المؤمنين؟ فقال" **إن لي نفسا ذواقة، وإنها لم تذق من الدنيا طبقة إلا تاقت إلى الطبقة التي فوقها، حتى إذا ذاقت الخلافة وهي أرفع الطباق تاقت إلى ما عند الله عز وجل**. وقال سعيد بن سويد صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه، فقال له رجل يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك فلو لبست؟ فنكس رأسه مليا ثم رفع رأسه فقال: "إن أفضل القصد عند الجدة، وإن أفضل العفو عند القدرة".

وبالجملة فالأحوال تختلف في مثل هذا، والمحبوب الوسط من اللباس الذي لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة. وقد قال صلى الله عليه وسلم: "كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير سرف ولا مخيلة، إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده". وقد قال عيسى عليه السلام: ما لكم تأتوني وعليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري، البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية. وبالجملة فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيه فينبغي أن يُقتدى به، ومنه ينبغي أن يُتعلم. وقد قال أبو سلمة قلت لأبي سعيد الخدري ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم؟ فقال: يا ابن أخي كل لله واشرب لله والبس لله، وكل شيء من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف، وعالج في بيتك من الخدمة ما كان يعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته، كان يعلف الناضح،

ويعقل البعير، ويقم (كنس (المعجم الوجيز)) البيت، ويحلب الشاة، ويخصف النعل، **ويرقع الثوب، ويأكل مع خادمه ويطحن عنه إذا أعيا، ويشتري الشيء من السوق**، ولا يمنعه الحياء أن يلعقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه، وينقلب إلى أهله، **يصافح الغني والفقير والكبير والصغير، ويسلم مبتدئا على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود أو أحمر حر أو عبد من أهل الصلاة، ليست له حلة لمدخله وحلة لمخرجه، لا يستحي من أن يجيب إذا دُعي وإن كان أشعث أغبر، ولا يحقر ما دُعي إليه وإن لم يجد إلا حشف الدقل، لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء، هين المؤنة، لين الخلق، كريم الطبيعة، جميل المعاشرة، طليق الوجه بسام من غير ضحك**، محزون من غير عبوس، شديد في غير عنف، متواضع في غير مذلة، جواد من غير سرف، **رحيم لكل ذي قربى ومسلم، رقيق القلب دائم الإطراق**، لم يبشم قط من شبع، ولا يمد يده من طمع. قال أبو سلمة فدخلت على عائشة رضي الله عنها فحدثتها بما قال أبو سعيد في زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: ما أخطأ منه حرفا، ولقد قصر إذ ما أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعا، ولم يبث إلى أحد شكوى، وإن كانت الفاقة لأحب إليه من اليسار والغنى، **وإن كان ليظل جائعا يلتوي ليلته حتى يصبح**، فما يمنعه ذلك عن صيام يومه، ولو شاء أن يسأل ربه فيؤتى بكنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها من مشارق الأرض ومغاربها لفعل، وربما بكيت رحمة له مما أوتي من الجوع فأمسح بطنه بيدي، وأقول نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع فيقول يا عائشة إخواني من أولي العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم، وقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم، فأجدني أستحيي إن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي دونهم، فأصبر أياما يسيرة أحب إلي من أن ينقص حظي غدا في الآخرة، وما من شيء أحب إلي من اللحوق بإخواني وأخلائي. قالت عائشة رضي الله عنها فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عز وجل. فما نُقل من أحواله صلى الله عليه وسلم يجمع جملة أخلاق المتواضعين، فمن طلب التواضع فليقتد به، ومن رأى نفسه فوق محله صلى الله عليه وسلم ولم يرض لنفسه بما رضي هو به فما أشد جهله، فلقد كان أعظم خلق الله منصبا في الدنيا والدين، فلا عز ولا رفعة إلا في الاقتداء به. ولذلك قال عمر رضي الله عنه: **إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلن نطلب العز في غيره**، لما عوتب في بذاذة هيئته عند دخوله الشام. وقال أبو الدرداء: "اعلم أن لله عبادا يقال لهم الأبدال خلف من الأنبياء هم أوتاد الأرض، فلما انقضت النبوة أبدل الله مكانهم قوما من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم يَفضَلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية، ولكن بصدق الورع وحسن النية وسلامة الصدر لجميع المسلمين، والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر من غير تجبن وتواضع في غير مذلة، وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه. واعلم يا أخي أنهم لا يلعنون شيئا ولا يؤذونه ولا يحقرونه ولا يتطاولون عليه، ولا يحسدون أحدا، ولا يحرصون على الدنيا، هم أطيب الناس خيرا وألينهم عريكة وأسخاهم نفسا، علامتهم السخاء وسجيتهم البشاشة وصفتهم السلامة، ليسوا اليوم في خشية وغدا في غفلة ولكن مدامين على حالهم الظاهر، وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تدركهم الرياح العواصف ولا الخيل المجراة، قلوبهم تصعد ارتياحا إلى الله واشتياقا إليه وقدما في استباق الخيرات، أولئك حزب الله ألا أن حزب الله هم المفلحون".

بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع له

اعلم أن الكبر من المهلكات ولا يخلو أحد من الخَلق عن شيء منه، وإزالته فرض عين، ولا يزول بمجرد التمني بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له. وفي معالجته مقامان أحدهما استئصال أصله من سِنخه (السنخ: الأصل من كل شئ، مغارز الأسنان

في الفك (المعجم العربي الأساسي)) وقلع شجرته من مغرسها في القلب؛ الثاني دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الإنسان على غيره. **المقام الأول في استئصال أصله وعلاجه** علمي وعملي، ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما. أما العلمي فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى، ويكفيه ذلك في إزالة الكبر. فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل، وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة. وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله. وأما معرفته نفسه فهو أيضا يطول ولكنا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع والمذلة، **ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله**، فإن في القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته، وقد قال تعالى:{قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره}، فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان وإلى آخر أمره وإلى وسطه، فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية. أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئا مذكورا وقد كان في حيز العدم دهورا بل لم يكن لعدمه أول، وأي شيء أخس وأقل من المحو والعدم، وقد كان كذلك في القدم ثم خلقه الله من أرذل الأشياء ثم من أقذرها، إذ قد خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم جعله عظما، ثم كسا العظم لحما. فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان شيئا مذكورا، فما صار شيئا مذكورا إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت، إذ لم يُخلق في ابتدائه كاملا، بل خلقه جمادا ميتا لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم، فبدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوته، وبجهله قبل علمه، وبعماه قبل بصره، وبصممه قبل سمعه، وببكمه قبل نطقه، وبضلالته قبل هداه، وبفقره قبل غناه، وبعجزه قبل قدرته. فهذا معنى قوله {من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره}، ومعنى قوله:{هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه}، كذلك خلقه أولا ثم امتن عليه فقال:{ثم السبيل يسره}، وهذا إشارة إلى ما تيسر له في مدة حياته إلى الموت، وكذلك قال:{من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا إنا هديناه السبيل وإما شاكرا أو كفورا}، ومعناه أنه أحياه بعد أن كان جمادا ميتا ترابا أولا، ونطفة ثانيا، وأسمعه بعد ما كان أصم، وبَصَّره بعد ما كان فاقدا للبصر، وقواه بعد الضعف، وعلمه بعد الجهل، وخلق له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها، وأغناه بعد الفقر، وأشبعه بعد الجوع، وكساه بعد العُري، وهداه بعد الضلال. فانظر كيف دبره وصوره، وإلى السبيل كيف يسره، وإلى طغيان الإنسان ما أكفره، وإلى جهل الإنسان كيف أظهره، فقال:{أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون}. فانظر إلى نعمة الله كيف نقله من تلك الذلة والقلة والخسة والقذارة إلى هذه الرفعة والكرامة، فصار موجودا بعد العدم، وحيا بعد الموت، وناطقا بعد البكم، وبصيرا بعد العمى، وقويا بعد الضعف، وعالما بعد الجهل، ومهديا بعد الضلال، وقادرا بعد العجز، وغنيا بعد الفقر. فكان في ذاته لا شيء، وأي شيء أخس من لا شيء، وأي قلة أقل من العدم المحض، ثم صار بالله شيئا. وإنما خلقه من التراب الذليل الذي يوطأ بالأقدام، والنطفة القذرة بعد العدم المحض أيضا ليعرفه خسة ذاته، فيعرف به نفسه، وإنما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه، ويعلم بها عظمته وجلاله، وأنه لا يليق الكبرياء إلا به جل وعلا. ولذلك امتن عليه فقال:{ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين}، وعرف خسته أولا فقال:{ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة}، ثم ذكر منته عليه فقال: {فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى}، ليدوم وجوده بالتناسل، كما حصل وجوده أولا بالاختراع. فمن هذا حاله في العاقبة إلا أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو، كيف يفرح ويبطر وكيف يتكبر ويتجبر وكيف يرى نفسه شيئا حتى يعتقد له

فضلا، وأي عبد لم يذنب ذنبا استحق به العقوبة إلا أن يعفو الله الكريم بفضله، ويجبر الكسر بمنه والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظن به، ولا قوة إلا بالله. وما من عبد مذنب إلا والدنيا سجنه، وقد استحق العقوبة من الله تعالى ولا يدري كيف يكون آخر أمره، فيكفيه ذلك حزنا وخوفا وإشفاقا ومهانة وذلا، فهذا هو العلاج العلمي القامع لأصل الكبر. وأما العلاج العملي فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين كما وصفناه وحكيناه من أحوال الصالحين ومن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى أنه كان يأكل على الأرض ويقول إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد. ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل، ولذلك أُمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعا، وقيل الصلاة عماد الدين، وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عمادا، ومن جملتها ما فيها من التواضع بالمثول قائما وبالركوع والسجود، وقد كانت العرب قديما يأنفون من الانحناء، فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحني لأخذه، وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه. فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضِعة، أُمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم ويزول كبرهم ويستقر التواضع في قلوبهم، وبه أمر سائر الخلق فإن الركوع والسجود والمثول قائما هو العمل الذي يقتضيه التواضع.

بيان ذم العجب وآفاته

اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. قال الله تعالى:{ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا}، ذكر ذلك في معرض الإنكار، وقال عز وجل:{وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا}، فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم، وقال تعالى:{وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا}، وهذا أيضا يرجع إلى العجب بالعمل. وقد يُعجب الإنسان بالعمل هو مخطئ فيه، كما يُعجب بعمل هو مصيب فيه. وقال صلى الله عليه وسلم: "ثلاث مهلكات، شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه"، وقال لأبي ثعلبة حيث ذكر آخر هذه الأمة فقال: "إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك". وقال ابن مسعود: "الهالك في اثنتين القنوط والعجب"، وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تُنال إلا بالسعي والطلب والجد والتشمر، والقانط لا يسعى ولا يطلب، والمعجب يعتقد أنه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى؛ فالموجود لا يُطلب، والمحال لا يُطلب، والسعادة موجودة في اعتقاد المعجب حاصلة له، ومستحيلة في اعتقاد القانط، فمن ههنا جمع بينهما. وقد قال تعالى:{فلا تزكوا أنفسكم}، قال ابن جريج معناه إذا عملت خيرا فلا تقل عملت، وقال زيد بن أسلم لا تبروها أي لا تعتقدوا أنها بارة، وهو معنى العجب. ووقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد بنفسه فأكب عليه حتى أصيبت كفه فكأنه أعجبه فعله العظيم إذ فداه بروحه حتى جرح، فتفرس ذلك عمر فيه فقال: مازال يعرف في طلحة نأو منذ أصيبت أصبعه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والنأو هو العجب في اللغة، إلا أنه لم ينقل فيه أنه أظهره واحتقر مسلما. ولما كان وقت الشورى قال له ابن عباس أين أنت من طلحة؟ قال ذلك رجل فيه نخوة، فإذا كان لا يتخلص من العجب أمثالهم فكيف يتخلص من الضعفاء إن لم يأخذوا حذرهم. وقيل لعائشة رضي الله عنها متى يكون الرجل مسيئا؟ قالت: إذا ظن أنه محسن. وقد قال تعالى:{لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى}، والمن نتيجة استعظام الصدقة، واستعظام العمل هو العجب فظهر بهذا أن العجب مذموم جدا.

بيان آفة العجب

اعلم أن آفات العجب كثيرة، فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه كما ذكرناه، فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى. هذا مع العباد، وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها، فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدها لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها، وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه فلا يجتهد في تداركه وتلافيه، بل يظن أنه يُغفر له. وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتبجح بها، ويمن على الله بفعلها، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها، ثم إذا عجب بها عمي عن آفاتها. ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعا، فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع، وإنما يتفقد من يغلب عليه الإشفاق والخوف دون العجب. والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه، ويظن أنه عند الله بمكان، وأن له عند الله منة وحقا بأعماله التي هي نعمة وعطية من عطاياه، ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويحمدها ويزكيها. وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال، فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه، وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره ولا يفرح بخواطر غيره، فيصر عليه ولا يسمع نصح ولا وعظ واعظ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ويصر على خطئه. فإن كان رأيه في أمر دنيوي فيحقق فيه، وإن كان في أمر ديني، لا سيما فيما يتعلق بأصول العقائد، فيهلك به. ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وواظب على مدارسة العلم وتابع سؤال أهل البصيرة، لكان ذلك يوصله إلى الحق. فهذا وأمثاله من آفات العجب، فلذلك كان من المهلكات. ومن أعظم آفاته أن يفتر في السعي لظنه أنه قد فاز وأنه قد استغنى، وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه. نسأل الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته.

بيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما

العجب هو **استعظام النعمة والركون إليها، مع نسيان إضافتها إلى المنعم**، فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقا وأنه منه بمكان حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا، واستبعد أن يجري عليه مكروه استبعادا يزيد على استبعاده ما يجري على الفساق، سمي هذا **إدلالا بالعمل**، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة. وكذلك قد يعطي غيره شيئا فيستعظمه ويمن عليه، فيكون معجبا، فإن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلا عليه. وقال قتادة في قوله تعالى:{ولا تمنن تستكثر}، أي لا تدل بعملك. والإدلال وراء العجب، فلا مدل إلا وهو معجب، ورُبَ معجب لا يدل، إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه، والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء. فإن توقع إجابة دعوته واستنكر ردها بباطنه وتعجب منه كان مدلا بعمله، لأنه لا يتعجب من رد دعاء الفاسق ويتعجب من رد دعاء نفسه. لذلك فهذا هو العجب والإدلال وهو من مقدمات الكبر وأسبابه والله تعالى اعلم.

بيان علاج العجب على الجملة

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده. وعلة العجب الجهل المحض، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط. فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة والغزو وسياسة الخلق وإصلاحهم، فإن العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوة والنسب وما لا يدخل تحت اختياره ولا يراه من نفسه. فنقول الورع والتقوى والعبادة والعمل الذي به يُعجب، إنما يُعجب به من حيث أنه فيه، فهو محِله ومجراه، أو من حيث أنه منه وبسببه وبقدرته وقوته. فإن

كان يعجب به من حيث أنه فيه وهو محله ومجراه يجري فيه وعليه من جهة غيره، فهذا جهل لأن المحل مسخر ومجرى لا مدخل له في الإيجاد والتحصيل، فكيف يعجب بما ليس إليه! وإن كان يعجب به من حيث أنه هو منه وإليه وباختياره حصل وبقدرته، ثم فينبغي أن يتأمل في قدرته وإرادته وأعضائه وسائر الأسباب التي بها يتم عمله أنها من أين كانت له. فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حق سبق له، ومن غير وسيلة يدلي بها، فينبغي أن يكون إعجابه بجود الله وكرمه وفضله، إذ أفاض عليه ما لا يستحق، وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة. فإنك إن أعجبت بعبادتك وقلت وفقني للعبادة لحبي له، فيقال ومن خلق الحب في قلبك فتقول هو، فيقال فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك، إذ لا وسيلة لك ولا علاقة، فيكون الإعجاب بجوده إذ أنعم بوجودك ووجود صفاتك وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك. فإذا لا معنى لعجب العابد بعبادته، وعجب العالم بعلمه، وعجب الجميل بجماله، وعجب الغني بغناه، لأن كل ذلك من فضل الله، وإنما هو محل لفيضان فضل الله تعالى وجوده، والمحل أيضا من فضله وجوده. فإن قلت لا يمكنني أن أجهل أعمالي وأني أنا عملتها فإني أنتظر عليها ثوابا، ولولا أنها عملي لما انتظرت ثوابا، فإن كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن أين لي الثواب، وإن كانت الأعمال مني وبقدرتي فكيف لا أعجب بها؟ فاعلم أن جوابك من وجهين، أحدهما هو صريح الحق والآخر فيه مسامحة. أما صريح الحق فهو أنك وقدرتك وإرادتك وحركتك وجميع ذلك من خلق الله واختراعه، فما عملت إذ عملت، وما صليت إذ صليت، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى. فمن العجائب أن تعجب بنفسك ولا تعجب بمن إليه الأمر كله، ولا تعجب بجوده وفضله وكرمه في إيثاره إياك على الفساق من عباده، إذ سلط دواعي الفساد على الفساق وصرفها عنك، وسلط أخدان السوء ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك، ومكنهم من أسباب الشهوات واللذات وزواها عنك، وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه وسلطها عليك، حتى تيسر لك الخير وتيسر لهم الشر. فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك، ولا جريمة سابقة من الفاسق العاصي، بل آثرك وقدمك واصطفاك بفضله، وأبعد العاصي وأشقاه بعدله. فما أعجب إعجابك بنفسك إذا عرفت ذلك، فإذن لا تنصرف قدرتك إلى المقدور إلا بتسليط الله عليك داعية لا تجد سبيلا إلى مخالفتها، فكأنه الذي اضطرك إلى الفعل إن كنت فاعلا تحقيقا، فله الشكر والمنة لا لك.

بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه

اعلم أن العجب بالأسباب التي بها يُتكبر كما ذكرناه، وقد يعجب بما لا يُتكبر به كعجبه بالرأي الخطأ الذي يزين له بجهله. فما به العجب ثمانية أقسام، **الأول** أن يعجب ببدنه في جماله وهيئته وصحته وقوته وتناسب أشكاله وحسن صورته وحسن صوته، وبالجملة تفصيل خلقته، فيلتفت إلى جمال نفسه وينسى أنه نعمة من الله تعالى، وهو بعرضة الزوال في كل حال. وعلاجه ما ذكرناه في الكبر بالجمال وهو التفكر في أقذار باطنه وفي أول أمره وفي آخره وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة أنها كيف تمزقت في التراب وأنتنت في القبور حتى استقذرتها الطباع.

الثاني البطش والقوة ويورث العجب بالقوة الهجوم في الحروب وإلقاء النفس في التهلكة، والمبادرة إلى الضرب والقتل لكل من قصده بالسوء، وعلاجه ما ذكرناه وهو أن يعلم أن حمى يوم تضعف قوته، وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلطها عليه.

الثالث العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا، وثمرته الاستبداد بالرأي وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه، ويخرج إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم إعراضا عنهم بالاستغناء بالرأي والعقل واستحقارا لهم وإهانة، وعلاجه أن يشكر الله تعالى على ما رزق من العقل ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن بحيث يُضحك منه، فلا يأمن من أن يُسلب عقله إن أعجب به ولم يقم بشكره، وليستقصر عقله وعلمه، وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلا وإن اتسع علمه، وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه، فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى، وأن يتهم عقله وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري، فإن القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله، فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه، ومن أعدائه لا من أصدقائه، فإن من يداهنه يثني عليه فيزيده عجبا وهو لا يظن بنفسه إلا الخير ولا يفطن لجهل نفسه فيزداد عجبا.

الرابع العجب بالنسب الشريف كعجب الهاشمية، حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه وأنه مغفور له، ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد. وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم وظن أنه ملحق بهم فقد جهل. ولذلك قال تعالى:{يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى}، أي لا تفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد، ثم ذكر فائدة النسب فقال:{وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا}، ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال:{إن أكرمكم عند الله أتقاكم}، وإنما نزلت هذه الآية حين أذن بلال يوم الفتح على الكعبة فقال الحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وخالد بن أسيد: هذا العبد الأسود يؤذن على الكعبة، فقال تعالى إن أكرمكم عند الله أتقاكم. فمن عرف هذه الأمور وعلم أن شرفه بقدر تقواه وقد كان من عادة آبائه التواضع اقتدى بهم في التقوى والتواضع، وإلا كان طاعنا في نسب نفسه بلسان حاله مهما انتمى إليهم ولم يشبههم في التواضع والتقوى والخوف والإشفاق.

الخامس العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم دون نسب الدين والعلم وهذا غاية الجهل، وعلاجه أن يتفكر في مخازيهم وما جرى لهم من الظلم على عباد الله والفساد في دين الله وأنهم الممقوتون عند الله تعالى. فحق أولاد الظلمة إن عصمهم الله من ظلمهم أن يشكروا الله تعال على سلامة دينهم ويستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين، فأما العجب فجهل محض.

السادس العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعشيرة والأقارب والأنصار والأتباع كما قال الكفار نحن أكثر أموالا وأولادا، وكما قال المؤمنون يوم حنين لا نغلب اليوم من قلة. وعلاجه ما ذكرناه في الكبر وهو أن يتفكر في ضعفه وضعفهم وأن كلهم عبيد عجزة لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا، كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، ثم كيف يعجب بهم وأنهم سيفترقون عنه إذا مات فيدفن في قبره ذليلا مهينا وحده لا يرافقه أهل ولا ولد ولا قريب ولا حميم، ولا عشير فيسلمونه إلى البلى والحيات والعقارب والديدان ولا يغنون عنه شيئا وفي أحوج أوقاته إليهم، وكذلك يهربون منه يوم القيامة {يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه} الآية، فأي خير فيمن يفارقك في أشد أحوالك ويهرب منك، وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر والقيامة وعلى الصراط إلا عملك وفضل الله تعالى، فكيف تتكل على من لا ينفعك وتنسى نعم من يملك نفعك وضرك وموتك وحياتك.

السابع العجب بالمال كما قال تعالى إخبارا عن صاحب الجنتين: {إذ قال أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا}.
ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا غنيا جلس بجنبه فقير فانقبض عنه وجمع ثيابه، فقال صلى الله عليه وسلم: "أخشيت أن يعدو إليك فقره"، وذلك للعجب بالغنى. وعلاجه أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه وعظيم غوائله، وينظر إلى فضيلة الفقراء وسبقهم إلى الجنة في القيامة، وإلى أن المال غاد ورائح ولا أصل له. فكيف يُتصور من المؤمن أن يعجب بثروته؟ بل لا يخلو المؤمن عن خوف من تقصيره في القيام بحقوق المال في أخذه من حله ووضعه في حقه، ومن لا يفعل ذلك فمصيره إلى الخزي والبوار فكيف يعجب بماله؟

الثامن العجب بالرأي الخطأ، قال الله تعالى: {أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا}، وقال تعالى: {وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا}، وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة، وبذلك هلكت الأمم السالفة، إذ افترقت فرقا فكل معجب برأيه، وكل حزب بما لديهم فرحون. وجميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لعجبهم بآرائهم، والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة مع ظن كونه حقا. وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه، ولا يعالج الداء الذي لا يُعرف، والجهل داء لا يُعرف فتعسر مداواته جدا، لأن العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله عنه إلا إذا كان معجبا برأيه وجهله فإنه لا يصغي إلى العارف ويتهمه. فقد سلط الله عليه بلية تهلكه وهو يظنها نعمة، فكيف يمكن علاجه؟ وكيف يطلب الهرب مما هو سبب سعادته في اعتقاده؟ وإنما علاجه على الجملة أن يكون متهما لرأيه أبدا لا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقلي صحيح جامع لشروط الأدلة، ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلا بقريحة تامة، وعقل ثاقب، وجد وتشمر في الطلب، وممارسة للكتاب والسنة، ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم، ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في بعض الأمور.

كتاب ذم الغرور

وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

أما بعد فمفتاح السعادة التيقظ والفطنة، ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة، فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة، ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية، ولا داعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة. فالأكياس وأرباب البصائر قلوبهم كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة، زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور. والمغترون قلوبهم كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج، من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور. فالأكياس هم الذين أراد الله أن يهديهم فشرح صدورهم للإسلام والهدى، والمغترون هم الذين أراد الله أن يضلهم فجعل صدرهم ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء، والمغرور هو الذي لم تنفتح بصيرته ليكون

بهداية نفسه كفيلا، وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائدا والشيطان دليلا، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا.

وفرق المغترين كثيرة ولكن يجمعهم أربعة أصناف، الصنف الأول من العلماء، الصنف الثاني من العباد، الصنف الثالث من المتصوفة، الصنف الرابع من أرباب الأموال. المغتر من كل صنف فرق كثيرة، وجهات غرورهم مختلفة. فمنهم من رأى المنكر معروفا، كالذي يتخذ المساجد ويزخرفها من المال الحرام، ومنهم من لم يميز بين ما يسعى فيه لنفسه وبين ما يسعى فيه لله تعالى، كالواعظ الذي غرضه القبول والجاه، ومنهم من يترك الأهم ويشتغل بغيره، ومنهم من يترك الفرض ويشتغل بالنافلة، ومنهم من يترك اللباب ويشتغل بالقشر، **كالذي يكون همه في الصلاة مقصورا على تصحيح مخارج الحروف**.

بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثلته

اعلم أن قوله تعالى:{فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور}، وقوله تعالى:{ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني}، الآية، **كاف في ذم الغرور**. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله". وكل ما ورد في فضل العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور، لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل. إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء ويراه على خلاف ما هو به، والغرور هو جهل، إلا أن كل جهل ليس بغرور. بل يستدعي الغرور مغرورا فيه مخصوصا ومغرورا به، وهو الذي يغره. فمهما كان المجهول المعتقد شيئا يوافق الهوى، وكان السبب الموجب للجهل شبهة ومخيلة فاسدة يُظن أنها دليل ولا تكون دليلا، سمي الجهل الحاصل به غرورا. فالغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان. فمن اعتقد أنه على خير إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه. فأكثر الناس إذا مغرورون، وإن اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم، حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض، وأظهرها وأشدها غرور الكفار وغرور العصاة والفساق. فنورد لهما أمثلة لحقيقة الغرور، المثال الأول **غرور الكفار**: فمنهم من غرته الحياة الدنيا، ومنهم من غره بالله الغرور. أما الذين غرتهم الحياة الدنيا فهم الذين قالوا النقد خير من النسيئة، والدنيا نقد والآخرة نسيئة، فهي إذن خير فلا بد من إيثارها، وقالوا اليقين خير من الشك، ولذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك، فلا نترك اليقين بالشك. وهذه أقيسة فاسدة تشبه قياس إبليس حيث قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين. وإلى هؤلاء الإشارة بقوله تعالى:{أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون}. وعلاج هذا الغرور إما بتصديق الإيمان وإما بالبرهان. أما التصديق بمجرد الإيمان فهو أن يصدق الله تعالى في قوله:{ما عندكم ينفد وما عند الله باق}، وفي قوله عز وجل:{وما عند الله خير}، وقوله:{والآخرة خير وأبقى}، وقوله:{وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور}، وقوله:{فلا تغرنكم الحياة الدنيا}. وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك طوائف من الكفار فقلدوه وصدقوه وآمنوا به ولم يطالبوه بالبرهان، ومنهم من قال نشدتك الله أبعثك الله رسولا فكان يقول نعم فيصدق. وهذا إيمان العامة وهو يُخرج من الغرور. وأما المعرفة بالبيان والبرهان فهو أن يعرف وجه فساد هذا القياس الذي نظمه في قلبه الشيطان، فإن كل مغرور فلغروره سبب، وذلك السبب هو دليل، وكل دليل فهو نوع قياس يقع في النفس ويورث السكون إليه، وإن كان صاحبه لا يشعر به ولا يقدر على نظمه بألفاظ العلماء. فالقياس الذي نظمه

الشيطان فيه أصلان، أحدهما أن الدنيا نقد والآخرة نسيئة وهذا صحيح، والآخر قوله أن النقد خير من النسيئة وهذا محل التلبيس، فليس الأمر كذلك. فكذلك من شك في الآخرة، فواجب عليه بحكم الحزم أن يقول أيام الصبر قلائل وهو منتهى العمر بالإضافة إلى ما يقال من أمر الآخرة، فإن كان ما قيل فيه كذبا فما يفوتني إلا التنعم أيام حياتي، وقد كنت في العدم من الأزل إلى الآن لا أتنعم فأحسب أني بقيت في العدم، وإن كان ما قيل صدقا فأبقى في النار أبد الآباد وهذا لا يطاق. ولهذا قال علي كرم الله وجهه لبعض الملحدين: "إن كان ما قلته حقا فقد تخلصت وتخلصنا، وإن كان ما قلناه حقا فقد تخلصنا وهلكت"، وما قال هذا عن شك منه في الآخرة ولكن كلم الملحد على قدر عقله وبين له أنه وإن لم يكن متيقنا فهو مغرور. وأما الأصل الثاني من كلامه وهو أن الآخرة شك فهو أيضا خطأ بل ذلك يقين عند المؤمنين، وليقينه مدركان أحدهما الإيمان والتصديق تقليدا للأنبياء والعلماء وذلك أيضا يزيل الغرور وهو مُدرَك يقين العوام وأكثر الخواص. فكذلك من نظر إلى المقرين بالآخرة والمخبرين عنها والقائلين بأن التقوى هو الدواء النافع في الوصول إلى سعادتها وجدهم خير خلق الله وأعلاهم رتبة في البصيرة والمعرفة والعقل وهم الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم، وشذ منهم آحاد من البطالين غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم إلى التمتع، فعظم عليهم ترك الشهوات وعظم عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار فجحدوا الآخرة وكذبوا الأنبياء. وهذا القدر من الإيمان كاف لجملة الخلق وهو يقين جازم يستحث على العمل لا محالة والغرور يزول به. فالمقصود أن غرور الشيطان بأن الآخرة شك يُدفع إما بيقين تقليدي وإما ببصيرة ومشاهدة من جهة الباطن، والمؤمنين بألسنتهم وبعقائدهم إذا ضيعوا أوامر الله تعالى وهجروا الأعمال الصالحة ولابسوا الشهوات والمعاصي فهم مشاركون للكفار في هذا الغرور، لأنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة. نعم أمرهم أخف لأن أصل الإيمان يعصمهم عن عقاب الأبد فيخرجون من النار ولو بعد حين ولكنهم أيضا من المغرورين، فإنهم اعترفوا بأن الآخرة خير من الدنيا ولكنهم مالوا إلى الدنيا وآثروها. **ومجرد الإيمان لا يكفي للفوز**، قال تعالى:{وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى}، وقال تعالى:{إن رحمت الله قريب من المحسنين}، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه"، وقال تعالى:{والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر}. فوعد المغفرة في جميع كتاب الله تعالى منوط بالإيمان والعمل الصالح جميعا لا بالإيمان وحده، فهؤلاء أيضا مغرورون، أعني المطمئنين إلى الدنيا الفرحين بها، المترفين بنعيمها المحبين لها، الكارهين للموت خيفة فوات لذات الدنيا، دون الكارهين له خيفة لما بعده، فهذا مثال الغرور بالدنيا من الكفار والمؤمنين جميعا. ولنذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين. فأما غرور الكفار بالله فمثاله قول بعضهم في أنفسهم وبألسنتهم أنه لو كان لله من معاد فنحن أحق به من غيرنا، ونحن أوفر حظا فيه وأسعد حالا، كما أخبر الله تعالى عنه من قول الرجلين المتحاورين إذ قال:{وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا}. وكذلك وصف الله تعالى قول العاص ابن وائل إذ يقول لأوتين مالا وولدا فقال الله تعالى ردا عليه:{أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا كلا}، وروي عن خباب بن الأرت أنه قال كان لي على العاص بن وائل دين فجئت أتقاضاه فلم يقض لي فقلت إني آخذه في الآخرة، فقال لي إذا صرت إلى الآخرة فإن لي هناك مالا وولدا أقضيك منه، فأنزل الله تعالى قوله:{أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا}، وقال الله تعالى: {ولئن أذقناه رحمة منا من بعض ضراء مسته ليقولون هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى}. وهذا كله من الغرور بالله وسببه قياس من أقيسة إبليس نعوذ بالله منه، وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم

في الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة، وينظرون مرة إلى تأخير العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة، كما قال تعالى:{ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول}، فقال تعالى جوابا لقولهم:{حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير}، ومرة ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراء شعث غبر فيزدرون بهم ويستحقرونهم فيقولون أهؤلاء من الله عليهم من بيننا، ويقولون لو كان خيرا ما سبقونا إليه... وهكذا نعيم الدنيا ولذتها فإنها مهلكات ومبعدات من الله، فإن الله يحمي عبده من الدنيا وهو يحبه، كما أخبر الله تعالى عنه إذ قال:{فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن}، فأجاب الله عن ذلك: كلا، أي ليس كما قال إنما هو ابتلاء، نعوذ بالله من شر البلاء ونسأل الله التثبيت. فبين أن ذلك غرور، قال الحسن: كذبهما جميعا بقوله كلا، يقول ليس هذا بإكرامي ولا هذا بهواني، ولكن الكريم من أكرمته بطاعتي غنيا كان أو فقيرا، والمهان من أهنته بمعصيتي غنيا كان أو فقيرا. وهذا الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والهوان، إما بالبصيرة أو بالتقليد. أما البصيرة فبأن يعرف وجه كون الالتفات إلى شهوات الدنيا مُبعِد عن الله، ووجه كون التباعد عنها مقربا إلى الله، وقد قال تعالى:{أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون}، وقال تعالى:{سنستدرجهم من حيث لا يعلمون}، وقال تعالى:{فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون}. وفي تفسير قوله تعالى سنستدرجهم من حيث لا يعلمون أنهم كلما أحدثوا ذنبا أحدثنا لهم نعمة ليزيد غرورهم، وقال تعالى:{إنما نملي لهم ليزدادوا إثما}، وقال تعالى:{ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار}، إلى غير ذلك مما ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله، فمن آمن به تخلص من هذا الغرور. فإن منشأ هذا الغرور الجهل بالله وبصفاته، فإن من عرفه لا يأمن مكره ولا يغتر بأمثال هذه الخيالات الفاسدة، وينظر إلى فرعون وهامان وقارون وإلى ملوك الأرض وما جرى لهم كيف أحسن الله إليهم ابتداء ثم دمرهم تدميرا، فقال تعالى:{هل تحس منهم من أحد}، الآية، وقد حذر الله تعالى من مكره واستدراجه فقال:{فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون}، وقال تعالى:{ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون}، وقال عز وجل:{ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين}، وقال تعالى:{إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا}. فإذن من أمن مكر الله فهو مغتر، ومنشأ هذا الغرور أنه استدل بنعم الدنيا على أنه كريم عند ذلك المنعم، واحتمل أن يكون ذلك دليل الهوان ولكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى، فالشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب إلى ما يوافقه، وهو التصديق بدلالته على الكرامة، وهذا هو حد الغرور. المثال الثاني **غرور العصاة من المؤمنين بقولهم إن الله كريم وإنا نرجو عفوه، واتكالهم على ذلك وإهمالهم الأعمال، وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم رجاء، وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين، وأن نعمة الله واسعة، ورحمته شاملة، وكرمه عميم؛ وأين معاصي العباد في بحار رحمته، وإنا موحدون ومؤمنون فنرجوه بوسيلة الإيمان**. وربما كان مستند رجائهم التمسك بصلاح الأباء وعلو رتبتهم. فهذا أيضا اغترار بالله تعالى، وهذا لأن الله تعالى يحب المطيع ويبغض العاصي. فإن قلت فأين الغلط في قول العصاة والفجار أن الله كريم وأنا نرجو رحمته ومغفرته وقد قال أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيرا. فما هذا إلا كلام صحيح مقبول الظاهر في القلوب، فاعلم أن الشيطان لا يغوي الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر مردود الباطن، ولولا حسن ظاهره لما انخدعت به القلوب. ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كشف عن ذلك فقال: "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله"، وهذا هو التمني على الله تعالى، غير الشيطان اسمه فسماه رجاء حتى خدع به الجهال. وقد شرح الله الرجاء فقال:{إن الذين آمنوا والذين هاجروا

وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله}، يعني أن الرجاء بهم أليق، وهذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال، قال الله تعالى: {جزاء بما كانوا يعملون}، وقال تعالى: {وإنما توفون أجوركم يوم القيامة}. قيل للحسن: قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل، فقال: "هيهات هيهات، تلك أمانيهم يترجحون فيها، من رجا شيئا طلبه، ومن خاف شيئا هرب منه". فكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن، أو آمن ولم يعمل صالحا، أو عمل ولم يترك المعاصي فهو مغرور. **فكذلك إذا آمن وعمل الصالحات وترك السيئات وبقي مترددا بين الخوف والرجاء، يخاف أن لا يقبل منه وأن لا يدوم عليه وأن يختم له بالسوء، ويرجو من الله تعالى أن يثبته بالقول الثابت، ويحفظ دينه من صواعق سكرات الموت حتى يموت على التوحيد، ويحرس قلبه عن الميل إلى الشهوات بقية عمره حتى لا يميل إلى المعاصي، فهو كيس**، ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله، وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ولتعلمن نبأه بعد حين، وعند ذلك يقولون كما أخبر الله عنهم: {ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون}، أي علمنا أنه لا يحصل في الآخرة ثواب وأجر إلا بعمل صالح فارجعنا نعمل صالحا، فقد علمنا الآن صدقك في قولك: {وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى} {كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير}، أي ألم نسمعكم سنة الله في عباده وأنه {توفى كل نفس ما كسبت وأن كل نفس بما كسبت رهينة} فما الذي غركم بالله بعد أن سمعتم وعقلتم {قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير}. فإن قلت فأين مظنة الرجاء وموضعه المحمود، فاعلم أنه محمود في موضعين، أحدهما في حق العاصي المنهمك إذا خطرت له التوبة، فقال له الشيطان وأنى تقبل توبتك فيقنطه من رحمة الله تعالى فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء، ويتذكر أن الله يغفر الذنوب جميعا، وأن الله كريم يقبل التوبة عن عباده، وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب، قال الله تعالى: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم وأنيبوا إلى ربكم}، أمرهم بالإنابة، وقال تعالى: {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى}، فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج، وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور. الثاني أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض، فيُرجى نفسه نعيم الله تعالى وما وعد به الصالحين حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة فيقبل على الفضائل، ويتذكر قوله تعالى: {قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون} إلى قوله {أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون}. فالرجاء الأول يقمع القنوط المانع من التوبة، والرجاء الثاني يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمر. فكل توقع حث على توبة أو على تشمر في العبادة فهو رجاء، وكل رجاء أوجب فتورا في العبادة وركونا إلى البطالة فهو غرة، كما إذا خطر له أن يترك الذنب ويشتغل بالعمل فيقول له الشيطان مالك ولإيذاء نفسك وتعذيبها ولك رب كريم غفور رحيم فيفتر بذلك عن التوبة والعبادة فهو غرة. وعند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ويقول أنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، وأنه مع أنه كريم خلد الكفار في النار أبد الآباد مع أنه لم يضره كفرهم، بل سلط العذاب والمحن والأمراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده في الدنيا وهو قادر على إزالتها، فمن هذه سنته في عباده وقد خوفني عقابه فكيف لا أخافه، وكيف أغتر به. فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل، فما لا يبعث على العمل فهو تمن وغرور. ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب إقبالهم على الدنيا وسبب إعراضهم عن الله تعالى وإهمالهم السعي للآخرة فذلك غرور. فقد أخبر صلى الله عليه وسلم وذكر أن الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الأمة، وقد كان ما وعد

به صلى الله عليه وسلم، فقد كان الناس في الأعصار الأول يواظبون على العبادات ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة إنهم إلى ربهم راجعون، يخافون على أنفسهم وهم طول الليل والنهار في طاعة الله يبالغون في التقوى والحذر من الشبهات والشهوات ويبكون على أنفسهم في الخلوات، وأما الأن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين مع إكبابهم على المعاصي وانهماكهم في الدنيا وإعراضهم عن الله تعالى، زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله راجون لعفوه ومغفرته، كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون. والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف لا يتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه إن كان مؤمنا بما فيه. وترى الناس يهذونه هذًّا يخرجون الحروف من مخارجها ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها وكأنهم يقرءون شعرا من أشعار العرب، لا يهمهم الالتفات إلى معانيه والعمل بما فيه، وهل في العالم غرور يزيد على هذا. فهذه أمثلة الغرور بالله وبيان الفرق بين الرجاء والغرور.

بيان أصناف المغترين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أصناف

الصنف الأول، **أهل العلم**، والمغترون منهم فرق، ففرقة أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها واشتغلوا بها، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي وإلزامها الطاعات، واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان، وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله مثلهم بل يقبل في الخلق شفاعتهم، وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله، وهم مغرورون فإنهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أن العلم علمان، علم معاملة، وعلم مكاشفة وهو العلم بالله وبصفاته المسمى بالعادة علم المعرفة. فأما العلم بالمعاملة كمعرفة الحلال والحرام ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها فهي علوم لا تراد إلا للعمل، ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة، وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل... وهكذا الفقيه الذي أحكم علم الطاعات ولم يعملها، وأحكم علم المعاصي ولم يجتنبها، وأحكم علم الأخلاق المذمومة وما زكى نفسه منها، وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتصف بها، **فهو مغرور**، إذ قال تعالى:{قد أفلح من زكاها}، ولم يقل قد أفلح من تعلم كيفية تزكيتها وكتب علم ذلك وعلمه الناس... وقول أبي الدرداء: ويل للذي لا يعلم مرة ولو شاء الله لعلمه، وويل للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات؛ أي أن العلم حجة عليه، إذ يقال له ماذا عملت فيما علمت وكيف قضيت شكر الله. وقال صلى الله عليه وسلم: "أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه". فهذا وأمثاله مما أوردناه في كتاب العلم في باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يحصى، إلا أن هذا فيما لا يوافق هوى العالم الفاجر وما ورد في فضل العلم يوافقه فيميل الشيطان قلبه إلى ما يهواه، وذلك عين الغرور ولذلك قال تعالى:{إنما يخشى الله من عباده العلماء}. وقال ابن مسعود:كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا. واستُفتي الحسن عن مسألة فأجاب، فقيل له إن فقهاءنا لا يقولون ذلك، فقال وهل رأيت فقيها قط، الفقيه القائم ليله الصائم نهاره الزاهد في الدنيا؛ وقال مرة: الفقيه لا يداري ولا يماري، ينشر حكمة الله فإن قُبلت منه حمد الله وإن ردت عليه حمد الله. فإذن الفقيه من فقه عن الله أمره ونهيه وعلم من صفاته ما أحبه وما كرهه وهو العالم، ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين. وفرقة أخرى أحكموا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا الصفات المذمومة عند الله من الكبر والحسد والرياء وطلب الرياسة والعلاء وإرادة السوء للأقران والنظراء وطلب الشهرة في البلاء والعباد، وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم فهو مكب عليها غير متحرز عنها ولا يلتفت إلى قوله صلى

الله عليه وسلم: "أدنى الرياء شرك"، وإلى قوله صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر"، وإلى قوله صلى الله عليه وسلم: "الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب"، وإلى قوله صلى الله عليه وسلم: "حب الشرف والمال ينبتان النفاق كما ينبت الماء البقل"، فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"، فتعهدوا الأعمال وما تعهدوا القلوب، والقلب هو الأصل، إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم. وفرقة أخرى علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع، إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك، وإنما يبتلي به العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم، فأما هم فأعظم عند الله من أن يبتليهم. ثم إذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة وطلب العلو والشرف، قالوا ما هذا كبر وإنما هو طلب عز الدين وإظهار شرف العلم ونصرة دين الله وإرغام أنف المخالفين من المبتدعين... وفرقة أخرى أحكموا العلم وطهروا الجوارح وزينوها بالطاعات، واجتنبوا ظواهر المعاصي، وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والحقد والكبر وطلب العلو وجاهدوا أنفسهم في التبري منها، وقلعوا من القلوب منابتها الجلية القوية، ولكنهم بعد مغرورون إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكايد الشيطان وخبايا خداع النفس ما دق وغمض مدركه فلم يفطنوا لها وأهملوها. فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك ويذهل عن المراقبة للخفايا والتفقد للدفائن، فتراه يسهر ليله ونهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها وجمع التصانيف فيها، وهو يرى أن باعثه الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته، ولعل باعثه الخفي هو طلب الذكر وانتشار الصيت في الأطراف وكثرة الرحلة إليه من الآفاق، وانطلاق الألسنة عليه بالثناء والمدح بالزهد والورع والعلم، والتقديم له في المهمات وإيثاره في الأغراض، والاجتماع حوله للاستفادة والتلذذ بحسن الإصغاء عند حسن اللفظ والإيراد والتمتع بتحريك الرءوس إلى كلامه والبكاء عليه والتعجب منه، والفرح بكثرة الأصحاب والأتباع والمستفيدين والسرور بالتخصص بهذه الخاصية من بين سائر الأقران والأشكال للجمع بين العلم والورع وظاهر الزهد، والتمكن به من إطلاق لسان الطعن في الكافة المقبلين على الدنيا لا عن تفجع بمصيبة الدين ولكن عن إدلال بالتمييز واعتداد بالتخصيص... فهذا وأمثاله من خفايا القلوب لا يفطن له إلا الأكياس ولا يتنزه عنه إلا الأقوياء، ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء إلا أن أقل الدرجات، أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ويسوءه ذلك ويكرهه ويحرص على إصلاحه. فإذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مرجو الحال وأمره أقرب من المغرور المزكي لنفسه الممتن على الله بعمله وعلمه، الظان أنه من خيار خلقه، فنعوذ بالله من الغفلة والاغترار، ومن المعرفة بخفايا العيوب مع الإهمال. هذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ولكن قصروا في العمل بالعلم.

وفرقة أخرى **تغلب عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها، فلا يزال يحتاط في التشديدات والفرق بين الضاد والظاء، وتصحيح مخارج الحروف في جميع صلاته لا يهمه غيره، ولا يتفكر فيما سواه ذاهلا عن معنى القرآن والاتعاظ به، وصرف الفهم إلى أسراره** وهذا من أقبح أنواع الغرور، فإنه لم يُكلَّف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم في الكلام. وفرقة أخرى **اغتروا بقراءة القرآن فيهذونه هذًّا، وربما يختمونه في اليوم والليل مرة**، ولسان أحدهم يجري به وقلبه يتردد في أودية الأماني، إذ لا يتفكر في معاني القرآن لينزجر بزواجره، ويتعظ بمواعظه، ويقف عند أوامره ونواهيه، ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه إلى غير ذلك، فهو مغرور يظن أن المقصود من إنزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه. **نعم تلاوته إنما تراد لكيلا يُنسى بعد حفظه، وحفظه يراد لمعناه، ومعناه يراد**

للعمل به والانتفاع بمعانيه. وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه ويلتذ به ويغتر باستلذاذه، ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله تعالى وسماع كلامه، وإنما هي لذته في صوته، ولو ردد ألحانه بشعر أو كلام آخر لالتذ به ذلك الالتذاذ، فهو مغرور إذ لم يتفقد قلبه فيعرفه أن لذته بكلام الله تعالى من حيث حسن نظمه ومعانيه أو بصوته. وفرقة أخرى أخذت في طريق الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ينكر على الناس ويأمرهم بالخير وينسى نفسه، وإذا أمرهم بالخير عنف وطلب الرياسة والعزة، وإذا باشر منكرا ورُد عليه غضب وقال أنا المحتسب فكيف تنكر علي، وقد يجمع الناس إلى مسجده ومن تأخر عنه أغلظ القول عليه وإنما غرضه الرياء والرياسة، بل منهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن لله ولو جاء غيره وأذن في وقت غيبته قامت عليه القيامة، وكذلك قد يتقلد إمامة مسجد ويظن أنه على خير، وإنما غرضه أن يقال أنه إمام مسجد فلو تقدم غيره وإن كان أورع وأعلم منه ثقل عليه. **وما من عمل من الأعمال وعبادة من العبادات إلا وفيها آفات فمن لم يعرف مداخل آفاتها واعتمد عليها فهو مغرور**. وفي العباد من يشدد على نفسه في أعمال الجوارح حتى ربما يصلي في اليوم والليلة مثلا ألف ركعة ويختم القرآن، وهو في جميع ذلك لا يخطر له مراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات، فلا يدري أن ذلك مهلك، وإن علم ذلك فلا يظن بنفسه ذلك، وإن ظن بنفسه ذلك توهم أنه مغفور له لعمله الظاهر، وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب، وإن توهم فيظن أن العبادات الظاهرة تترجح بها كفة حسناته. وفرقة أخرى حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض؛ ترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وبصلاة الليل وأمثال هذه النوافل، ولا يجد للفريضة لذة ولا يشتد حرصه على المبادرة بها في أول الوقت، وينسى قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه "ما تقرب المتقربون إلي بمثل أداء ما افترضت عليهم". وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور، بل قد يتعين في الإنسان فرضان أحدهما يفوت والآخر لا يفوت، أو فضلان أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته، فإن لم يحفظ الترتيب فيه كان مغرورا. ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى، فإن المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة، وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض، كتقديم الفرائض كلها على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية، وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه، وتقديم ما يفوت على مالا يفوت. ومن ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور، وهذا غرور في غاية الغموض لأن المغرور فيه في طاعة إلا أنه لا يفطن لصيرورة الطاعة معصية، حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهم منها. وفرقة أخرى ربما اكتسبت المال من الحلال وأنفقت على المساجد وهي أيضا مغرورة من وجهين أحدهما الرياء وطلب الثناء فإنه ربما يكون في جواره أو بلده فقراء وصرف المال إليهم أهم وأفضل وأولى من الصرف إلى بناء المساجد وزينتها، وإنما يخف عليهم الصرف إلى المساجد ليظهر ذلك بين الناس، والثاني أنه يصرف إلى زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش التي هي منهي عنها وشاغلة قلوب المصلين ومختطفة أبصارهم، والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب، وذلك يفسد قلوب المصلين ويحبط ثوابهم بذلك ووبال ذلك كله يرجع إليه، وهو مع ذلك يغتر به ويرى أنه من الخيرات، ويعد ذلك وسيلة إلى الله تعالى، وهو مع ذلك قد تعرض لسخط الله تعالى وهو يظن أنه مطيع له وممتثل لأمره، وقد شوش قلوب عباد الله بما زخرفه من المسجد وربما شوقهم به إلى زخارف الدنيا فيشتهون مثل ذلك في بيوتهم ويشتغلون بطلبه، ووبال ذلك كله في رقبته، إذ المسجد للتواضع ولحضور القلب مع الله تعالى. وفرقة أخرى ينفقون الأموال في الصدقات على الفقراء والمساكين ويطلبون به المحافل الجامعة، ومن الفقراء من عادته الشكر والإفشاء للمعروف، ويكرهون التصدق في السر، ويرون إخفاء الفقير لما يأخذ منهم جناية عليهم وكفرانا. **وربما يحرصون على إنفاق المال في الحج فيحجون مرة بعد**

أخرى، وربما تركوا جيرانهم جياعا. ولذلك قال ابن مسعود في آخر الزمان يكثر الحج بلا سبب، يُهون عليهم السفر ويُبسط لهم في الزرق، ويرجعون محرومين مسلوبين يهوي بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار وجاره مأسور إلى جنبه لا يواسيه. وقال أبو نصر التمار أن رجلا جاء يودع بشر بن الحارث وقال قد عزمت على الحج فتأمرني بشيء. فقال له كم أعددت للنفقة فقال ألفي درهم. قال بشر: فأي شئ تبتغي بحجك تزهدا أو اشتياقا إلى البيت أو ابتغاء مرضاة الله؟ قال ابتغاء مرضاة الله. قال فإن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى أتفعل ذلك؟ قال نعم. قال: اذهب فأعطها عشرة أنفس: مديون يقضي دينه، وفقير يرم شعثه، ومعيل يغني عياله، ومربي يتيم يفرحه، وإن قوي قلبك تعطيها واحدا فافعل، فإن إدخالك السرور على قلب المسلم، وإغاثة اللهفإن، وكشف الضر، وإعانة الضعيف، أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام، قم فأخرجها كما أمرناك وإلا فقل لنا ما في قلبك. وفرقة أخرى من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء اغتروا بحضور مجالس الذكر، واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم واتخذوا ذلك عادة ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاظ أجرا، وهم مغرورون، لأن فضل مجلس الذكر لكونه مُرغِّبا في الخير، فإن لم يهيج الرغبة فلا خير فيه، والرغبة محمودة لأنها تبعث على العمل، فإن ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها. وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس وفضل البكاء، وربما تدخله رقة كرقة النساء فيبكي ولا عزم، وربما يسمع كلاما مخوفا فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول يا سلام سلم أو نعوذ بالله أو سبحان الله، ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور. فكل وعظ لم يغير منك صفة تغييرا يغير أفعالك حتى تقبل على الله إقبالا قويا أو ضعيفا وتعرض عن الدنيا فذلك الوعظ زيادة حجة عليك، فإذا رأيته وسيلة لك كنت مغرورا.

فإن قلت فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يتخلص منه أحد ولا يمكن الاحتراز منه، وهذا يوجب اليأس إذ لا يقوى أحد من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات. فأقول الإنسان إذا افترقت همته في شيء أظهر اليأس منه واستعظم الأمر واستوعر الطريق، وإذا صح منه الهوى اهتدى إلى الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول إلى الغرض. حتى أن الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المحلق في جو السماء مع بعده منه استنزله، وإذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحر استخرجه، وإذا أراد أن يستخرج الذهب أو الفضة من تحت الجبال استخرجه، وإذا أراد أن يقنص الوحوش المطلقة في البراري والصحاري اقتنصها، وإذا أراد أن يستسخر السباع والفيلة وعظيم الحيوانات استسخرها، وإذا أراد أن يأخذ الحيات والأفاعي ويعبث بها أخذها واستخرج الدرياق من أجوافها، وإذا أراد أن يتخذ الديباج الملون المنقش من ورق التوت اتخذه، وإذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها استخراج بدقيق الهندسة ذلك وهو مستقر على الأرض، وكل ذلك باستنباط الحيل وإعداد الآلات، فسخر الفرس للركوب والكلب للصيد وسخر البازي لاقتناص الطيور وهيأ الشبكة لاصطياد السمك إلى غير ذلك من دقائق حيل الآدمي، كل ذلك لأن همه أمر دنياه وذلك معين له على دنياه، فلو همه أمر آخرته فليس عليه إلا شغل واحد وهو تقويم قلبه، فعجز عن تقويم قلبه وتخاذل وقال هذا محال ومن الذي يقدر عليه. وليس ذلك بمحال لو أصبح وهمه هذا الهم الواحد، بل هو كما يقال لو صح منك الهوى أُرشدت للحيل. فهذا شيء لم يعجز عنه السلف الصالحون ومن اتبعهم بإحسان، فلا يعجز عنه أيضا من صدقت إرادته وقويت همته، بل لا يحتاج إلى عشر تعب الخلق في استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها.